قصص
العصبي
أحمد رمضان
دار ليلى

العصبي

(مجموعة قصصية)

احمد رمضان

كيان كورب للنشر والتوزيع
دار ليلى

© جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع - دون موافقة كتابية - يعرض صاحبه للمساءلة القانونية

الكتاب:
العصبي
المؤلف:
أحمد رمضان
* * *
الغلاف:
محمد محمود
* * *
الإشراف العام:
محمد سامي

المهندسين-23 شارع السودان—تقاطع مصدق-الدور الرابع—مكتب 11
هاتف: 33370042 (02) (002) - 23885295 (012) (002)
البريد الإليكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

احمد رمضان

العصبي

دار ليلى
كيان كورب
للنشر والتوزيع

ورقة

اجتاز الطفل الشارع رغم السيارات العابرة بسرعة .. حمل بضاعته الرخيصة على ظهره وبدأ يطرق نوافذ السيارات منادياً عليها .. رمقه بعض أصحاب السيارات دون مبالاة .. والبعض باستنكار أحياناً عندما يواصل الطرق على النوافذ بإلحاح .. تلقى كلمات السباب من بعض السائقين وقابلها بابتسامة بلهاء .. انتقل إلى شارع آخر .. لساعات ظل يتنقل ويدور بين السيارات .. تملكه التعب قليلاً فاتجه إلى الرصيف .. جلس عليه يستريح لبرهة ويستعيد أنفاسه اللاهثة .. رمى بضاعته بجانبه وأحصى نقوده القليلة .. رفع عينيه للشمس التى تحرقه بحرارتها .. تلفت حوله بحثاً عن شئ يستظل به .. لم يجد سوى صفحة شبه ممزقة .. صفحة من جريدة قديمة حملها الهواء حتى استقرت على بعد خطوات منه .. التقطها وطواها على رأسه .. نظر للشارع منتظراً إغلاق الإشارة الضوئية حتى ينطلق مرة أخرى .. مسح بضع قطرات من العرق بطرف قميصه المتسخ .. هبت نسمة من الريح أطارت الصفحة من قبضة يده الضعيفة .. التقطها مرة أخرى قبل أن تطير بعيداً .. وقبل أن يضعها على رأسه مرة أخرى لمح صورة فيها .. بسط الصفحة أمامه قليلاً .. صورة عائلة صغيرة .. أب وأم يحتضنان ابناءهما بسعادة .. لم يدرك أنه إعلان .. لم يكن يجيد القراءة والكتابة على أي حال .. كل ما لفت نظره تلك الابتسامة التى تضئ وجه كل واحد منهم وقد لفت الأم بيدها على الأبناء من جهة .. والأب من جهة أخرى .. سرح قليلاً مع الصورة .. ارتسمت على وجهه دون وعي ابتسامة صغيرة قتلتها أشعة الشمس الحارقة .. انتبه فأحكم وضع الصفحة فوق رأسه مرة أخرى .. شرد بعيداً وتساءل فى حيرة .. لماذا يبتسم الأبناء فى الصورة بهذا الشكل .. ربما سببه الإحساس بالأمان .. ذلك الشعور الذى لم يعرفه منذ هرب من الملجأ لقسوة المعاملة هناك .. وقبلها لم يعرف معنى العائلة .. التقطوه صغيراً من أحد الحقول المهجورة ولم يستدلوا على أهله .. هكذا أخبروه فى الملجأ .. عندما يسمع أحداً يتكلم عن العائلة يشعر بشئ غامض .. ربما لأنه لم يعرف يوماً معنى تلك الكلمة أو يدرك قيمتها .. حرص كثيراً على أن يعرف معناها لكنه فشل .. منذ هرب من الملجأ لعب عدة مرات فى الشارع مع أطفال فى مثل عمره .. بعضهم يمنعه من اللعب معهم بتأفف، والبعض يقبلوه بلا اهتمام .. عندما يرى كل واحد منهم يتكلم عن عائلته يلتقط أحاديثهم بتركيز واهتمام .. لم

يستطع أن يكون صورة واضحة رغم ذلك .. ولكنه يشعر أنهم يتكلمون عنها بلهجة تحمل كثيراً من الشعور بالأمان والدفء .. الشعور الذى افتقده دوماً

انتبه على صوت فرملة سيارة .. أغلقت الإشارة الضوئية الآن .. التقط بضاعته التى وضعها على الرصيف بجواره .. نحى الورقة جانباً .. انطلق بسرعة يسابق الزمن ليعرض بضاعته على أصحاب السيارات المنتظرة .. التقطت عيناه أحد السيارات التي تبدو فارهة على الجانب البعيد .. تقودها امرأة بجوارها طفل ربما تعطف عليه وتمنحه بعض النقود .. انطلق يقصدها .. لم ينتبه أن سيارة أخرى تأت مسرعة رغم توقف الإشارة .. لم يشعر سوى بلفحة قوية من الهواء ترتطم بوجهه .. ضعط صاحب السيارة على الفرامل فوراً بمجرد أن عبر الطفل أمامه .. وتجمد هو فى مكانه وهو يرى الجسم المعدني المنطلق بسرعة نحوه .. قبل أن يغمض عينيه حتى لا يرى يد الموت الممتدة نحوه، صدمته السيارة بقسوة

توقفت الحركة فى الشارع .. نزل صاحب السيارة فوراً وهو ينهال بالشتائم على الطفل الذى عبر أمامه فجأة .. تجمع المارة حول كتلة اللحم والدم الجديدة الملقاة على الطريق .. الطفل ممدد على ظهره تنساب منه بركة دماء تزداد تدريجياً .. بيده ما زال يقبض على كيس ممزق يحمل فيه بضاعته التى تناثرت محتوياتها بعيداً .. أسرع شخص ما يخترق الجمع بصعوبة معلنا أنه طبيب .. ما زالت قدما الطفل تنتفضان بشكل طفيف بينما سكن باقى جسده تقريباً .. لحظات كشف عليه الطبيب كانت انتفاضة قدميه قد هدأت تماماً وسكن جسده بينما عيناه لا زالتا مفتوحتان تتطلعان بشرود إلى نقطة ما بعيدة غير مرئية .. هز الطبيب رأسه بأسف .. دارى البعض أعينهم، بينما تناثرت همهمات أسف بين المارة المتوقفين .. ألقى أحد المارة نظرة على الجثة الجديدة مفتوحة العينين .. بحث فى المكان عن شئ يغطيها به .. اختفى لثوان ثم عاد .. تقدم مخترقاً الحشود .. غطى وجهه بورقة من صحيفة لم يجد غيرها بعد أن سبل عينيه برفق .. امتصت الورقة دماء الطفل فوراً .. ورقة من صحيفة قديمة لم يلاحظ أن على ظهرها ترتسم بوضوح .. صورة عائلة صغيرة تبتسم بدفء

معلش

اندفع في براءة ليلعب مع ابن الجيران .. لم يخجل سعيد من ملابسه القديمة أو حذائه الممزق بينما يرتدي الأولاد أفضل ملابسهم في العيد .. لم يكن في سن تسمح له بإدراك الفرق بين الغني والفقير .. أو تمييز وجود مسافات تفصل بينهما .. وربما لهذا السبب لم يخجل .. وقف مع نبيل ابن الجيران الذي عاد والده للتو من الخليج محملاً بلعب كثيرة ودراجة جديدة .. تباهي نبيل وسط أقرانه بالعيدية الكبيرة التي تحصل عليها من والده .. لم يحقد سعيد عليه .. صحيح أنه تمنى بشدة أن تكون له لعب كثيرة مثل صديقه .. ولكن قلبه البكر لم يعرف معنى الحقد عليه .. أعجبته الدراجة الصغيرة بألوانها الزاهية فلم يطلب من صديقه سوى أن يسمح له بركوب دراجته قليلاً .. نظر إليه نبيل باشمئزاز .. رفض طلبه بغضب .. اقترب منه سعيد مرة أخرى ليتوسل إليه مكرراً طلبه .. ولكنه دفعه بقوة جعلته يسقط على الأرض .. في تلك اللحظة دلف والد سعيد إلى الحارة .. عاد للتو مرهقاً من عمله كعامل سكة حديد رغم أجازة العيد التي يتمتع بها كل الناس .. لمح ابنه على الأرض .. اندفع إليه .. ساعده على النهوض .. كف الأطفال عن السخرية منه عندما رأوا أبيه وإن لم يكفوا عن التطلع نحوه باستهزاء .. سار به بعيداً .. ربت على كتفه بحنان .. نظر إليه في عينيه وقال له مشجعاً " معلش .. بكرة تبقى أحسن منهم "

رنت كلمات أبيه في أذنيه .. ظل يتذكرها طويلاً .. سنوات عدة مرت عليه بعدها توفي فيها والده .. اجتهد سعيد في دراسته .. تخرج من كليته ليواجه حياة قاسية .. عمل بكل المهن الممكنة لشاب في سنه .. لم ترأف به الحياة وأدارت له وجهها القاسي .. تنقل بين الوظائف لا يكاد يستقر في أي منها .. بائع .. محاسب في محل صغير .. عامل في مصنع .. يعمل في أكثر من وظيفة أحياناً .. يجتهد ليحقق ما يحلم به .. يسهر كثيراً، ويبذل قصارى جهده في كل عمل يؤديه .. سنوات وكل ما يجنيه ليس إلا القليل .. مع الأيام ينحل جسده ولكن عزيمته تزداد صلابة، ومعها ثقته بنفسه .. يجمع كل ما يكسبه .. يبدأ مشروعاً صغيراً مع بعض أصدقائه .. لم يلبث أن يفشل ليخسر معظم مدخراته البسيطة .. لا ييأس .. يمنحه القدر فرصة سفر للخارج أهداها له صديقه فؤاد الذي تحصل عليها ولكنه فضل عدم السفر لظروف أسرية .. يسافر سعيد .. تمر عليه سنوات الغربة ثقيلة .. يرجع بعد عدة سنوات بجسد معتل، ومبلغ من المال يبدأ به مشروعاً أخر .. يتعلم من تجربته الأولى .. يصر تلك المرة على

النجاح، لن يتحمل عواقب خسارة أخرى .. يتعب حتى يدفع تجارته نحو الاستقرار .. يخضع لفترة لتقلبات السوق فترتفع به أحياناً، وتهوي به إلى القاع أحياناً أخرى .. ولكنه يغامر بكل طاقته وما يملكه .. تمر عليه فترات طويلة صعبة، يزحف اليأس إليه أكثر من مرة ولكنه يقاوم .. لا يريد تذوق مرارة الفشل مجدداً، ولن يمكنه الصمود أمام تجربة محبطة أخرى .. شهور تواترت عليه ببطء قبل أن يرى تجارته تزدهر .. تعلم أن يحافظ على كل قرش يجنيه ليعود فيستثمره مرة أخرى في تجارته لتنمو أكبر .. وينمو اسمه معها .. يقضي يومه بالكامل في العمل لا يعرف معنى الراحة ولا يتذوق لذتها .. يمنح عمله عمره ووقته بلا حساب .. تبتسم له الحياة أخيراً .. تستقر تجارته بعد طول تعثر .. ويبدأ في جني أولى ثمار عمله .. ولأول مرة بعد سنوات مريرة من العمل دون كلل أو توقف .. ينتابه شعور بالأمان لم يختبره من قبل ..

ينظر لوجهه يوماً في المرآة .. هاله الشعر الأبيض الذي يزحف على رأسه .. مرت الأيام بشكل أسرع من حساباته .. لم يدرك أن عمره يقترب من الأربعين .. لم يفكر يوماً في الزواج .. فحياته بأكملها كانت لتجارته .. خطب مرة واحدة بمجرد أن عاد من السفر.. ولكنها فشلت سريعاً .. ربما لأنه لم يحاول جدياً تغيير نمط حياته المضطرب .. يخرج في الصباح الباكر ولا يعود من عمله إلا عند انتصاف الليل .. اتهمته خطيبته بالأنانية والبخل .. لم يكن أنانياً ولكن قسوة السوق استنزفت مشاعره، وكل مليم كان يكسبه ظل يوفره خوفاً من تقلبات السوق على تجارته الهشة قبل أن تستقر .. انتبه بعد أن ابتسمت له الدنيا أخيراً .. لا تعجبه فكرة أن يقضى ما تبقى من عمره وحيداً .. بلا طفل حتى يرثه .. بدأ جدياً في البحث عن زوجة تشاركه مصيره .. طال بحثه حتى اهتدى أخيراً لمن ارتاح لها قلبه .. ابتاع بيتاً كبيراً في الحارة التي شهدت أيام فقره .. اشترى أفضل الأثاث، وأقام حفل زفاف تكلم عنه الناس كثيراً .. تزوج ولم يعد ينقصه سوى ولي العهد الذي يحمل اسمه، ويرث تجارته بعد عمر يتمنى أن يكفي ليراه شاباً يافعاً أمامه .. تنقضي الأيام سريعاً .. جميلة ولكن دون أي بوادر لقدوم طفله المرتقب .. يتنقل بين كثير من الأطباء دون جدوى .. يجمع الأطباء على عدم وجود عيب منه أو من زوجته يمنعهما من الإنجاب .. ينصحونه بالصبر .. لم يعد يحب تلك الكلمة .. يريد أن يلغيها من قاموس حياته للأبد .. عامان مرا والصبر يتجرعه كدواء مر .. لأول مرة في حياته يندم .. تمنى لو تزوج مبكراً .. أخيراً تظهر بوادر الحمل عند زوجته .. يطير من الفرح .. يترك عمله كثيراً ويسهر

بجانبها لرعايتها .. يراقب بطنها وهي تكبر ببطء يوماً عن يوم .. يحصي الأيام ويعد الدقائق بلهفة شديدة لقدوم ابنه .. وتلد زوجته .. يحمل ابنه وهو يبكي فرحاً .. يحتضنه وشعور خاص يجتاحه لم يتذوقه من قبل .. يراقبه يكبر يوماً بعد يوم بشغف .. يتابع كل تفاصيل حياته مهما كانت صغيرة بلهفة .. يعود من عمله مبكراً أحياناً فقط ليقضي وقتاً أطول معه، ولا يكاد يفترق عنه طوال فترة تواجده في المنزل .. ينمو الولد أمامه وهو يرقبه بسعادة .. تعهد أن لا يبخل عليه بأي شئ .. يأتى إليه بكل ما يتمناه .. لا يريده أن يتذوق كأس الحرمان التي تجرعها صغيراً .. يكبر الولد ليبدأ اللهو مع أقرانه في الحارة .. يضايقه قليلاً الأمر .. لا يرغب أن يختلط ابنه بأطفال الحارة الفقراء .. يفكر في تغيير بيته والانتقال إلى مكان آخر ليوفر بيئة أفضل لطفله .. ولكن زوجته تعارض قراره، فهي ترغب أن تبقى بجوار أهلها .. يؤجل مرغماً الفكرة لوقت آخر ..

يرجع من عمله يوماً مرهقاً .. ابنه يلهو مع أطفال الحارة .. يسمح لهم باستخدام لعبه التي اشتراها له .. تبهرهم لعبه الجديدة التي لا يمتلكون مثلها .. يقف لتحية أحد أصدقائه بمقربة من ابنه .. ينشغل بالحديث معه .. بعد قليل يصل إلى سمعه صراخ ابنه العالي .. يهرع إليه على الفور وقلبه يرتجف .. أحد أطفال الحارة كسر له لعبته المفضلة وهو يلهو بها .. وابنه يصيح به بغضب .. يتجه للطفل الذي تسمر في مكانه خائفاً وبيده اللعبة التي كسرها دون قصد .. يتطلع لملابسه المتسخة زحذائه الممزق .. ينهره بعنف وهو يربت على كتف ابنه بحنان .. يطرق الطفل للأرض بخجل وجسده الضئيل يرتجف .. لا ينتبه سعيد في تلك اللحظة لقدوم والد الطفل .. فؤاد صديقه القديم .. أعز أصدقائه الذي فضله على نفسه ومنحه فرصة للسفر .. لم تبتسم له الدنيا كما فعلت مع سعيد .. يترك دكانه البسيط على ناصية الحارة ويهرع ليشهد الموقف .. ابن فؤاد ما زال في مكانه لم يتزحزح وقد بدأت الدموع تفلت من عينيه قهراً .. ينظر فؤاد بدهشة لصديقه القديم الذي وشت ملامحه بغضب تام .. يدنو من أبنه وهو ما زال ينظر إلى سعيد دون تصديق .. لم يعد يعرفه .. تغير كثيراً فلم يعد يميز صديق عمره القديم .. يحتضن ابنه الخائف .. يتألم وهو يرى دموعه التي انسابت رغماً عنه .. يبتعد به وهو يشعر بمرارة في حلقه .. بينما مازال الأطفال يواصلون همساً السخرية منه .. يربت على كتفه بحنان بالغ .. يميل عليه مشفقاً .. يهمس في أذنه برفق وهو يحتضنه " ماتزعلش يا حبيبى .. معلش .. بكرة إن شاء الله هتبقى أحسن منهم"

الساقية المهجورة

كانت الشمس قد بدأت تغادر المكان تاركه مكانها للظلام الذي نشر خيوطه على الطريق الترابي الممتد بين القرية الهادئة والحقول البعيدة عنها

سارع حمدان بالعودة لقريته بعد يوم طويل مرهق .. اضطر للبقاء في حقله لفترة أطول على غير المألوف .. لم يعتاد يوما العودة في الظلام، ولكن للضرورة أحكام .. انتهى متأخراً من ري أرضه بعد عطب طارئ أصاب ماكينة الري الوحيدة لديه .. استمر الهواء القوي يعصف بجسده النحيل وهو يستعد للمغادرة .. ربط بهائمه وامتطى حماره وأسرع بالعودة .. لاحت القرية من بعيد كأحجار نرد قديمة متراصة بلا نظام .. طالما تمنى أن تكون له أرض بجوار بيته فيرتاح من مشقة الطريق .. ولكن حلمه ظل حبيس الخيال لا يرى النور كعادة كل أحلامه .. تنهد بأسف .. ولكز حماره بقوة

بدأ قرص الشمس في التهاوي وحمدان يخطو أولى خطواته على الطريق .. بانت الأشجار وهامات النخيل كأشباح غاضبة تحركها الرياح القوية التي هبت على المكان .. باتت الرؤية صعبة بعد أن ملأ غبار خفيف الجو .. ولكنه لم يهتم .. حماره يحفظ الطريق على أي حال .. كل ما يفكر به في تلك اللحظة وجبة ساخنة وكوب من الشاى بمجرد أن يعود يزيح بهما تعب اليوم .. والأهم أن يحتمي داخل دفء بيته من تلك البرودة القارسة التي تميز أواسط الشتاء .. اندفع بغيظ يشتم حماره الذي يتهادى ببطء باحثا عن العشب في جوانب الطريق .. يستحثه بقوة على أن يزيد من سرعته .. وكلما اقترب من الساقية المهجورة، كلما زاد خفقان قلبه .. لما لا وهو المكان الغامض الذي يخشى الجميع المرور به ليلاً .. ما زالت تنتشر كثير من الحكايات على ألسنة أهل القرية عن أشباح وعفاريت تظهر فيه .. أحياناً تخطف المارة .. وأحياناً تؤذيهم فقط .. يقال أن امرأة اتفقت مع حبيبها على الهرب وتواعدا على اللقاء عند الساقية .. انتظرته هناك ولكن أهلها علموا بالأمر .. لحقوا بها وقتلوها.. ومن يومها لم تدر الساقية مرة أخرى .. حكى له عمر ابن عمه ذات مرة كيف كان يمر عبر ذلك الطريق ليلاً عندما سمع طنين غريب ولدغته حشرة لم يرى مثلها من قبل .. لدغة قوية لدرجة أنها آلمته لعدة أيام .. لا يزال يتذكر كلامه جيداً .. ويتذكر عندما اختفي عطية الذي ذهب قبيل الفجر ليسقي حقله قبل الناس ولكنه لم يعد .. هنا عثروا على

فأسه بجوار الساقية .. صحيح أن ملابسه وجدوها في الحقل، وربما يكون الفأس قد وقع منه في الطريق .. والمرجح أن عطيه قتله وقتها بعض قطاع الطرق ممن انتشر شرهم في تلك الفترة وأخفوا جثته .. ولكن الشائعات تؤكد أن أشباح ذلك المكان هي السبب .. وشائعات أخرى عن فلاحين مروا بالمكان في وقت متأخر؛ بعضهم يؤكد سماع صوت امرأة تبكي، وآخرين عادوا ليصفوا رؤيتهم لأضواء خافتة تنبعث من الساقية ليلاً .. بل أن بعضهم كان ينزف دماً عندما يقترب ليلاً من المكان، أو يشعر بألم غامض ودون سبب معروف .. ولكن معظم تلك الحكايات تبدو قديمة مر عليها وقت طويل لا يعلم مداه .. فأمه كانت تنقلها له عندما كان ما زال صغيراً.. وتبدو كتراث خاص يتناقله أهالي القرية بحرص

تلفت حوله بحذر وهو يقترب من الساقية المهجورة .. الهواء القوي بدأ يخمد ولا يسمع سوى صوت عبث الرياح الخفيف بفروع الأشجار .. أسرع الخطى وقد بدأت رعشة تسري في جسمه لا يدري أهي من البرد أم من الخوف .. أو لعله تعب اليوم .. لعن أصدقائه .. لما لم ينتظروه مثل كل يوم ليعودوا معاً إلى القرية .. يتخيلهم الآن في بيوتهم يستمتعون بالدفء، أو لعلهم يتسامرون في مقهى القرية الوحيد وهم يلعبون النرد .. لعن صديقه سعد بالأخص الذي وعده أن يمر عليه عند انتهاء اليوم ليعودا معاً ولكنه أخلف وعده .. كان يرى الآن الساقية القديمة بوضوح وبدت مخيفة وأشد كآبة بالنسبة له .. حاول أن يتذكر أي شئ يسعده .. طفت صور قليلة في خياله قبل أن تستقر أخيراً على صورة حبيبته سعاد .. تذكر ابتسامتها المرحة التي غزت قلبه من أول لحظة رآها .. ولقاءاتهما المحدودة الممتعة كل مرة تذهب إلى الحقل لوالدها تحمل الطعام إليه، وتمر بحلقله قبلها .. لم ينسى يوم تقدم لخطبتها .. كم بدت مرتبكة لدرجة أنها سكبت المشروب الساخن عليه وهى تقدمه .. ابتسم رغم إرادته .. شهرين فقط ويتم زفافهما .. نسى للحظات الطريق وترك نفسه باستسلام سابحاً مع تيار أحلامه .. بينما حماره ينهب الطريق ببطء

فجأة توقف الحمار مكانه .. أفاق من أحلامه .. لم يدر لما توقف .. لكزه في بطنه بعنف .. عاود الحمار المشي لخطوات قليلة قبل أن يتوقف مرة أخرى .. أطال بصره في المكان يحاول اختراق الظلام الذي أحاط به .. ولكنه لم يبصر شيئاً .. ربما لمح الحمار ثعباناً أو عقرب .. ترجل عن حماره .. دار ببصره مرة أخرى في المكان بتمعن دون أن يكشف أثر لجديد .. أصاغ سمعه فلم يتناهى إليه سوى صوت حفيف

أغصان الأشجار تحركها الرياح .. أمتطى الحمار مرة أخرى وهو يسب ويلعن .. أهوى بالعصا على جسمه .. نهق الحمار بقوة وسار بخطوات ثقيلة إلى الأمام .. هبت نسمة هواء ومعها دوى في أذن الرجل صوت عواء .. انقبض قلب حمدان تماماً .. أيكون ذئباً .. ألهذا وقف الحمار .. ولكن المنطقة هنا تخلو من الذئاب .. لحظات ثقيلة من السكون مرت عليه قبل أن يدوى الصوت نفسه مرة أخرى ولكن تلك المرة أقرب ..انتفض الحمار وصاحبه .. تشبثت يدا حمدان على عصاه بقوة وقد اتسعت عيناه على آخرهما يحاول أن يتبين أي شئ من الظلام المحدق به .. الرياح القوية بدأت تهب مرة أخرى .. تكاد تقتلعه من على ظهر حماره الذي يرفض بعناد المضى قدماً .. يتذكر الحكايات التي قيلت عن المكان .. كل حكاية وكل قصة تطفو الآن بجنون داخل ذهنه .. تكاد ضربات قلبه تتوقف .. خيل إليه فجأة أنه لمح شبحاً يمر أمامه .. بسرعة كتم أنفاسه .. تجمد الدم في عروقه .. تيبس جسده تماماً لا يكاد يتنفس .. توقف عقله عن التفكير .. حاول أن يتذكر أي آيات من القرآن ولكنه كان في حالة لا تسمح له بتذكر أي شئ .. شعر بهواء ساخن يلفح رأسه .. من أين يأت الهواء الساخن في ليلة شديدة البرودة كتلك .. تناهى إلى أذنه أصوات تقترب منه .. أصاغ السمع جيداً .. لعلها خيالات تفرضها سطوة المكان، لكنه لم يكن واهماً .. الأصوات تقترب .. أصوات أقدام .. تجمدت أطرافه .. شل الخوف إدراكه .. مرت لحظات كأنها دهر .. شئ يعبث برأسه فيلتفت فجأة ليصطدم بالظلام .. الأصوات تقترب من خلفه .. خافتة ولكنها واضحة .. أدار رأسه ببطء وحذر شديدين .. رفع قدمه اليسرى لينزل عن حماره .. الصوت يدنو منه .. يتبينه الآن بوضوح .. شئ ما خلفه يقترب منه ببطء كما يشعر .. تناول عصاه و شد عليها بيده .. يتنفس بقوة .. لم يعد يستطيع كتم أنفاسه المتلاحقة .. كان يهم بالنزول من على حماره عندما تحرك الحمار للأمام بغتة .. حركة مفاجئة لم يستطع معها حفظ توازنه .. وقع على الأرض بقوة .. ارتطمت قدمه بعنف بأحد الصخور الناتئة .. صرخ حمدان من الألم .. دوت صرخته في المكان بعنف لتشق سكون الليل .. حاول أن يقف على قدميه ولكنه لم يستطع .. تألم بشدة بينما اقترب الصوت منه والذي سمعه تلك المرة واضحاً .. صوتاً خافتاً يناديه باسمه

تختلف روايات أهل القرية كلما تذكروا قصة حمدان .. عاد حمدان إلى قريته تلك الليلة وهو يجر قدمه التي تنزف .. لولا صديقه سعد لما استطاع العودة .. سعد الذي تأخر في الحقل هو أيضاً وكان في طريقه عائداً عندما لمح حمدان من بعيد .. لم

يتعرف على من يسبقه على الطريق بسبب الظلام فنادى عدة مرات ليتوقف ولكن ضاع صوته مع الرياح القوية .. وعندما وقع حمدان هرع إليه وعرفه .. كانت قدم حمدان في حالة سيئة واستمر ينزف بقسوة طوال الطريق الطويل .. اضطروا لنقله إلى مستشفى بعيد حيث لا يتوافر آخر في القرية الصغيرة فساءت حالته أكثر .. انتابته حمى وبدأ يهذي بكلمات غير مفهومة عن أشباح وعن الساقية .. أثبت التشخيص وجود كسر مضاعف في قدمه اليسرى .. حشروا قدمه في الجبس شهراً .. أبلغوه أنه سيعرج بعد فك الجبس لأنه تأخر كثيراً في علاج إصابته .. تحولت حياته بعدها للأسوأ لفترة ليست بالقصيرة .. خطيبته هجرته .. قالت أنها لن تتزوج من رجل أعرج .. الأرض تم إهمالها لفترة بعد غياب صاحبها عنها .. حمدان رجع بعد مدة طويلة إلى حياته وإلى عمله .. عاد أكثر شجاعة من قبل رغم قدمه العرجاء .. لا يخاف من أي شئ .. الغريب أنه كان يصر على الذهاب إلى حقله ليلاً ليسقى زرعه قبل الناس .. يمر من نفس الطريق بلا خوف .. يواجه الناس بأن كل حكايات الساقية المهجورة مجرد أوهام من صنع خيالهم .. وأنها وحدها سبب ما حدث له .. ولكن أهل القرية لا يصدقونه .. يقولون أن شبح المرأة أخذ قدم حمدان، وأخذ معها عقله .. ولكنها كانت رحيمه به .. لم تأخذ حياته .. وما زالوا يضيفون قصة حمدان إلى عشرات القصص التي لا تنتهي عن الساقية المهجورة

العصبي

يعلم الجميع أنه عصبي .. تلك ليست المشكلة .. المشكلة حقا أنه لا ينكر ذلك؛ يعترف بوضوح أنه عصبي، سريع الاستثارة، ومندفع .. ولكنه لم يحاول تغيير ذلك أبداً .. ينتابه الغضب ويندفع في السباب كالسيل العارم لأتفه الأسباب .. وأحياناً دون أسباب تذكر .. يفقد أعصابه بسهولة فيثور دون أن يبال بالعواقب .. برميل من البارود قابل للاشتعال في أي لحظة كما يحلو للبعض أن يصفه .. تلك كانت طبيعته المميزة .. وهكذا مضت حياته .. مشاكل له .. ومأساة للآخرين ممن أوقعهم حظهم العاثر في دائرة التعامل معه .. جيرانه يخشون الاقتراب منه بعد أن علمتهم التجارب أن الاحتكاك به ينتهى دوماً بنتائج وخيمة .. زملائه في العمل يواصلون الشكوى منه .. وأصدقائه يتناقصون تدريجياً عاماً بعد آخر .. صحيح أنه يتمتع بصفات كثيرة جيدة .. فهو كريم و" شهم " كما يراه أصدقائه .. و" قلبه أبيض " كما تؤمن زوجته .. ولكن تلك الصفات لم تحسن من صورته كثيراً أمام الناس .. ولم يكن هو يهتم بتحسين صورته على أي حال .. فآراء الناس لم تعد تعنيه .. حيث يعيش على طبيعته كما يؤكد .. ويزعم دوماً أن تصرفات الناس وأفعالهم الخاطئة هي ما تستثير غضبه

حتى مساء أحد الأيام .. كان يشاهد مباراة لكرة القدم .. وفريقه كان مهزوماً .. انفعل بشدة مع المباراة ونسى نفسه .. ومع إهدار أحد اللاعبين لفرصة تسجيل هدف .. اندفع يكيل الشتائم دون وعي للاعب .. ولفريقه .. ولكرة القدم كلها . عندما انتهت المباراة أغلق التلفاز .. اقترب منه ابنه الصغير الذي لم يتعد عمره خمس سنوات .. حضنه بحنان .. رفع الولد رأسه إلى أبيه بفضول .. نظر إليه في براءة قبل أن يسأله " بابا .. يعنى أيه ابن ال .... ؟ "

صعقته المفاجأة .. لم يصدق ما سمع .. لم يلحظ أن ابنه الذي كان يلهو ببعض الدمى أمام التلفاز قد سمعه .. بل وحفظ كلماته .. أو بالأصح شتائمه .. وتفاجئ بسؤاله .. لم يجد إجابة تسعفه ولم يدر كيف يتصرف فوقف أمام ابنه عاجزاً لأول مرة .. ندم على أنه تفوه بذاك اللفظ .. ورأى شريط حياته أمامه بكل مشاكلها التي سببها الغضب .. تطلع إلى ابنه بشفقة .. ولأول مرة لم يتمن أن يشب ابنه مثله .. لم يرغب أن يزرع في ابنه نفس صفاته السيئة

لم يتمكن من النوم طوال الليل .. ظل يفكر طويلاً .. يحاسب نفسه حساباً عسيراً ويعاتبها .. في الصباح كان قد عقد العزم على أمر ما .. قرر فجأة أن يتغير .. شعر أن الغضب يسلبه عقله بالفعل وانتابه ندم لأول مرة في حياته .. ندم حقيقي ليس فقط على كل المواقف المحرجة التي سببتها له عصبيته الزائدة ولحظات تهوره الحمقاء .. بل وللمشاكل التي سببها هو للآخرين .. طوال الليل يلوم نفسه ويحاسبها بقسوة .. كيف سمح لنفسه أن يقع تحت رحمة الغضب، أن يستسلم له بسهوله لهذا الحد .. كيف لا يستطيع أن يحفظ لسانه حتى أمام أعز الناس لديه .. صمم على أمر ما وقرر تنفيذه دون تردد .. يتذكر أن أحد أصدقائه المقربين تحداه مازحاً من قبل بأن ينجح في قضاء ولو يوم واحد من حياته بلا مشاكل .. بل توقع له الفشل التام وراهنه بشدة على أنه لن يتمكن من تحقيق ذلك .. فكر فيما قاله بجدية تامة تلك الليلة .. هل من الصعب عليه حقا أن يقوم بأمر مماثل .. لما لا يجرب أن يقضي يوماً واحداُ فقط من حياته بلا غضب .. ربما خطوة صغيرة على الطريق الصحيح للتخلص من تلك الحالة التي تفحلت لتسيطر عليه .. فكرة رغم بساطتها قد تكون خطوة أولى تغير مجرى حياته بأكملها .. سيتعلم أن يسيطر على أعصابه أكثر .. أن يمنع نفسه من الغضب .. لن يثور لأي سبب ولن يدع غضبه يتحكم به .. لن يتبادل السباب أو إلقاء اللعنات جزافاً على أي شئ أو شخص يستفزه .. وسينجح في الحفاظ على هدوء أعصابه تحت أي ظرف .. راهن نفسه على النجاح .. أن يكون شخص مثالي ويدع يوماً واحداً من حياته يمر بسلام .. بلا مشاكل من أي نوع .. لن يكون الأمر صعباً .. وسيثبت لنفسه أنه قادر على أن يكون إنساناً أفضل إذا حاول .. صمم على خوض التجربة مهما كانت نتائجها .. وفي الصباح نهض بتفاؤل كبير على النجاح

تناول إفطاره في حماس .. قبل ابنه الصغير بحنان قبل أن يغادر .. لم تعتاد زوجته رؤيته مبتسماً هكذا من قبل .. بخاصة في بداية يومه .. طلبت منه مبلغاً إضافياً من المال .. منحها إياه دون أن يسألها عن السبب كالمعتاد .. أسرع بالخروج وقد دب نشاط غريب في جسده ..

قبل أن يخطو نحو المصعد .. تعثر بشئ ما .. كاد يسقط على وجهه .. نهض بسرعة وتطلع بغضب ليرى ماهية الشئ الذي تعثر به .. لم يكن سوى كيس القمامة الخاص بجاره .. وضعه في منتصف الردهة وليس أمام شقته كما يفترض .. شعر بالدماء الحارة تسري إلى عروقه بسرعة .. ولكنه تمالك نفسه .. تذكر أنه قطع وعداً لنفسه

أن يتصرف بمثالية اليوم .. أغمض عينيه محاولاً استرداد هدوئه .. وتذكر فجأة نصيحة أحد أصدقائه .. أن يحاول جاهداً التماس الأعذار للناس قبل أن يثور عليهم .. واصل التنفس بعمق .. أقنع نفسه سريعا أن جاره قد قام بذلك عن غير قصد، أو ربما أحد الأطفال الأشقياء عبث بالكيس وركله إلى منتصف الردهة .. شعر بالارتياح قليلاً لتفسيره الأمر على تلك الصورة .. وبعد ساعة أو أقل سيخرج جاره على أي حال إلى عمله الصباحي وبالتأكيد سيعيد كيس القمامة إلى مكانه .. سرعان ما تمالك رباطة جأشه .. زفر أنفاسه بعمق .. وانتابه شعور بالراحة لنجاحه في كبت تيار غضبه قبل أن يتفاقم

ضغط مفتاح المصعد .. انتظر طويلاً .. المصعد لا يتحرك من الطابق الأول .. تريث فترة أطول دون جدوى .. قرر أن يهبط على الدرج .. لايضايقه أكثر من استخدام الدرج فهو ليس شخصاً رياضياً بطبعه .. ربما أصاب المصعد عطل مفاجئ .. هكذا قال لنفسه .. في الطابق الأول لمح طفلين من أطفال الجيران يلهوان داخل المصعد وقد تركا بابه مفتوحاً .. اغتاظ بشدة .. لم يجد عذراً تلك المرة كي يبرر فعلتهما .. هم أن يتوجه إليهما ويعنفهما بشدة .. انكمش الطفلان خوفاً عندما لمحاه يتجه نحوهما .. يعرفانه جيداً .. تقدم منهما ببطء وهو يلهث، سيطر على أعصابه بشدة حتى لا ينفجر غضبا .. تطلع إلى كل منهما ببرود .. تمالك نفسه وغادر بسرعة بينما نظر الطفلين كل منهما إلى الآخر بعدم تصديق

توجه مسرعاً نحو سيارته الصغيرة .. كم يعشق تلك السيارة المتهالكة رغم أعطالها المتكررة في الفترة الأخيرة .. يعتني بها كثيراً منذ ورثها عن أبيه، يعشقها ويخاف عليها .. بل ويكلمها أحياناً وكأنها تفهمه .. عبر الشارع .. لم يدرك أن هناك مفاجأة أخرى في انتظاره .. لمح اثنان من المراهقين يجلسان على مقدمة السيارة التي لا تتحمل ثقل وزنيهما خاصة وأن أحدهما بديناً .. تحركت بوادر الحرب داخل نفسه .. تسمر في مكانه لدقيقة يحاول أن يسيطر على انفعالاته وميوله العدوانية بصعوبة .. أطرق للأرض يتنفس بعمق، و لأنه قرر أن لا يثير مشاكل من أي نوع، لم ينقض عليهما كالصاعقة ويلقنهما درساً كما اعتاد أن يفعل في مواقف كتلك .. اقترب من السيارة وطلب منهما بأدب أن ينزلا عن مقدمتها .. تطلع إليه أحدهما باستهتار .. نهضا وانصرفا بتثاقل .. تمنى لو يلحق بهما بسيارته ويدهسهما .. لم يحاول أحدهما حتى أن يعتذر .. ألقى على سيارته العزيزة نظرة شفقة .. تحسسها برفق .. لاحظ أن

السيارة ما زال يعلوها التراب .. تذكر أنه أعطى البواب نقوداً بالأمس كي يغسل السيارة .. البواب الكسول المخادع تجاهله .. هكذا تمتم لنفسه حانقا .. هم أن يتوجه إليه ويفرغ شحنة الغضب التي تتملكه الآن فيه .. في منتصف الطريق تذكر أن البواب كان يسعل بشدة عندما رآه بالأمس .. ربما لم يقم بغسل السيارة لأنه كان مريضاً وليس كسلاً منه كما ظن .. تريث لبرهة .. عليه أن يكون إيجابي حقا ويلتمس الأعذار للناس .. تسمر في مكانه بتردد، هز رأسه في حيرة .. انسحب عائداً لسيارته .. سيطمئن عليه عندما يعود .. والسيارة لن يضرها بأي حال أن تبقى يوماً آخر بلا تنظيف .. نظر إلى زجاج السيارة .. أحد الظرفاء استغل تراكم التراب عليه وقام برسم بعض الأشكال والكلمات عليها .. مسحها بكل هدوء

ركب السيارة وانتظر قليلاً حتى " يسخن " محركها .. قبل أن يغادر قطعت عليه فجأة سيارة كبيرة الطريق .. شاحنة نقل توقفت أمام سيارته تماماً لتفريغ بعض البضائع .. لم يستطع أن يتحرك .. قطب حاجبيه في غضب يدرك بوادره .. من المؤكد أن السائق أعمى أو لا يدرك أصول القيادة جيدا كي يصف سيارته أمامه بذلك الشكل الفج .. هكذا قال لنفسه .. تذكر موقف مماثل حدث من عدة أيام .. لم يترك السائق إلا بعد أن" مسح بكرامته الأرض" .. لا يريد أن يكرر السلوك العنيف نفسه مجدداً .. لن يضره بعض الانتظار بأى حال .. تمهل في سيارته طويلاً حتى أفرغت سيارة الشحن حمولتها .. انطلق بعدها إلى عمله ساخطا

في العمل انهمك بكل حواسه في دراسة بعض الملفات وإنهاء بعض الأوراق الهامة .. أثناء انشغاله جاءه الساعي بكوب الشاي الذي طلبه .. هم بوضع الكوب أمامه حين ناداه أحد زملائه .. التفت إليه بقوة فاصطدم بالساعي الذي يقف بجانبه تماماً .. انساب السائل الساخن فوق الملفات، بينما انسكب جزء منه على ساقه .. انتفض من الألم .. نظر بحسرة إلى الأوراق التي غرقت في السائل الداكن .. أحمرت عيناه من الغضب بينما تسمر الفراش في مكانه دون حراك يتطلع إليه في رعب حقيقي ويتوقع رد فعله العنيف فهو يعرف طباعه جيداً .. للحظات تخيل أنه على وشك أن ينقض على الفراش المسكين ويمزقه بأسنانه .. سحب نفساً عميقاً وزفره ببطء .. ظل يتنفس في قوة حتى يهدأ .. تمالك نفسه بصعوبة .. بدأ في تنظيف المكتب بينما هم الفراش بمساعدته مواصلاً الاعتذار إليه بخوف وجسمه ينتفض .. أشاح له بالانصراف، لو بقى أمامه لوقت أطول لتغير رد فعله بالتأكيد .. انصرف الفراش وهو لا يصدق أنه

نجا .. بينما راقبه زملائه في العمل بدهشة .. لم يعتادوا منه أن يفوت مثل تلك الفرص السانحة لتنفيث غضبه الكامن .. غادر لينظف ثيابه وعاد للعمل بعد عدة دقائق ووجهه محتقن بشدة

كان الجو حاراً .. ورغم المروحة التي تعمل بكل قوتها إلا أن الجو داخل المكتب ظل خانقاً .. توجه لتصوير بعض الأوراق الهامة .. انقطعت الكهرباء فجأة .. رجع ساخطاً .. بدأت قطرات من العرق تنساب منه بينما آلمته عيناه وهو يراجع الملفات بعد أن أصبحت نافذة صغيرة يأتي منها ضوء الشمس هي المصدر الوحيد للإضاءة داخل الغرفة المغلقة .. استدعاه مديره .. أعطاه مزيد من الأوراق وطلب منه مراجعتها بسرعة لأن أحد زملائه تغيب عن العمل .. هم برمي الأوراق في وجهه مهما كانت عواقب ذلك الفعل .. أراد أن ينفجر فيه فكيف يقوم بكل هذا العمل في مثل ذلك الجو الخانق .. ولكنه بدلاً من ذلك تناول الأوراق بلا كلام وخرج وهو يكتم غيظه ..

مرت ساعات من المعاناة في العمل .. قرر الاستئذان مبكراً .. عليه أن ينهي بعض الأوراق الخاصة بنقل ابنه من مدرسته القديمة إلى مدرسة أخرى جديدة بجوار منزله .. الطريق كان مزدحماً بشدة .. أثناء مروره بأحد الشوارع لمح سيدة ومعها أطفالها الثلاث يحاولون بيأس عبور الطريق .. توقف بسيارته ليسمح لها بالعبور .. فاجأه كم هائل من أبواق السيارات الغاضبة وراءه لتعطيله المرور .. بينما قام بعض السائقين بتوجيه سيل من الشتائم له .. غلت الدماء في عروقه .. قرر أن يترجل من سيارته ويرد لهم الصاع صاعين .. ثم تذكر أنه يرغب أن يمر اليوم بسلام .. كبت ثورته التي توشك على الانفجار وانطلق بالسيارة مرة أخرى وسط سباب الكثيرين الذي يصل لمسامعه بوضوح .. عندما وصل إلى المدرسة الجديدة .. سأل عن الموظف المسؤول لتسليمه ملف ابنه .. أخبروه أنه غائب .. تلك ثالث مرة يترك عمله ويأت ليتفاجئ بتغيبه عن العمل .. سأل أقرب موظف له بنفاذ صبر لما لا يحل موظف أخر مكان زميلهم الغائب ويتولى عمله، خاصة وأنه يرى العديد منهم بالفعل داخل المكتب بلا عمل .. نظر إليه الموظف ببرود قبل أن يرد عليه بأن جميع زملائه مشغولون بأعمالهم! .. أراد أن ينفجر فيهم جميعاً .. تذكر ابنه .. سحب الملف وهو يرمقهم بنظرات نارية وخرج خائباً، خالي الوفاض مجدداً

في طريقه للمنزل اتصلت به أخته .. أخبرته أن أمه مريضة .. انطلق إلى منزلها على الفور .. بمجرد أن وصل حتى أسرع للاطمئنان عليها .. سألها عن صحتها بقلق، ومدى التزامها بتعليمات الطبيب .. تأكد أنها تتناول الدواء الذي وصفه لها الطبيب بانتظام، ما سبب تدهور صحتها إذن .. لاحظ ظهور بضع بقع حمراء على جلدها .. لا بد أنه من آثار الدواء الجديد .. لعن الطبيب في سره .. أخبره من قبل أن والدته تعاني من الحساسية من مكونات بعض الأدوية .. قرر مرافقة والدته للطبيب مرة أخرى .. في العيادة تأخر الطبيب كالمعتاد بينما اصطف المرضى لانتظاره طويلاً .. انتظر مع والدته المسنة بنفاذ صبر، تطلع باشمئزاز إلى العيادة غير النظيفة وإلى الأثاث البالي .. تعجب لما لا يهتم الطبيب بعيادته قليلاً رغم أنه يجني كثير من المال .. زاد حنقه على الطبيب ولكنه تمالك نفسه حرصاً على والدته .. وصل الطبيب أخيراً ..لم يعد بوسعه الانتظار، اضطر أن يدس في يد الممرضة مبلغاً من المال خلسة لتسمح له بتجاوز طابور المرضى الطويل .. كشف الطبيب على والدته ووصف لها دواءاً جديداً .. ضايقه بشدة أن الطبيب لم يحاول حتى أن يعتذر عن وصفه لدواء خاطئ من قبل وكأنه أمر طبيعى اعتاد القيام به .. تمنى في تلك اللحظة أن يحطم رأس الطبيب ومعها عيادته المتواضعة .. بداخله حاول التماس الأعذار للطبيب نتيجة لمشاغله الكثيرة .. ولكنه لم ينجح ورفض عقله بلا وعي كل الأعذار التي حاول اختلاقها .. غادر العيادة وهو أكثر حنقاً محاولاً منع نفسه من القيام بأي رد فعل متهور كما اعتاد .. اتصلت به زوجته .. وطلبت منه شراء بعض الأغراض الأخرى .. قام بمرافقة أمه للمنزل .. اطمئن عليها وانطلق للسوق ..

في الطريق توقف أمام إشارة ضوئية مزدحمة .. أمامه سيارة فارهة يركبها شاب لا يتعدى عمره العشرين وبجواره فتاة في تماثله عمرا بينما صوت الموسيقى العالي ينساب من السيارة ليصم الآذان .. يتبادلان الضحك بمجون، ويميل عليها كثيراً وكأنهما وحدهما وليس في طريق عام .. تطلع نحوهما بعض سائقي السيارات المنتظرة في فضول نهم .. وبعضهم في حنق واضح على تصرفاتهما .. انتظر في الإشارة طويلاً .. عندما أضاء الضوء الأخضر أخيراً استعد للانطلاق .. ولكن الشاب في السيارة الفارهة أمامه لم يتحرك .. ما زال يميل على الفتاة ويضحكان .. أطلق نفير السيارة عدة مرات ولكن الشاب لم ينتبه .. انطلقت أبواق السيارات خلفه في غضب لتصم آذانه .. عندما انتبه الشاب أخيراً نظر وراءه للسيارات المنتظرة بلا مبالاة .. انطلق ببطء بينما يتحول لون الإشارة من البرتقالي إلى الأحمر ..اضطر

للتوقف بينما عبر الشاب .. ضرب المقود في غضب .. فكر في كسر الإشارة الحمراء والانطلاق خلف الشاب ليحطم رأسه وسيارته اللعينة معاً .. منع نفسه بصعوبة من إرسال كم هائل من الشتائم كما فعل العديد من سائقي السيارات خلفه .. عليه الانتظار مرة أخرى حتى تفتح الإشارة مجدداً في صبر

تذكر أنه لم يدفع فاتورة الكهرباء .. انتظم في طابور طويل حتى سدد فاتورته .. عندما انتهى عاد إلى سيارته .. اكتشف أن الإطار الأيمن للسيارة فارغ .. ربما بسبب مسمار أو زجاج مكسور، أو أحد تلك المخلفات مجهولة الهوية والتي تتناثر بكثرة على طول الطريق .. كتم أنفاسه في ضيق .. لا يمتلك إطار احتياطي .. صف السيارة واستقل تاكسي بعد فترة انتظار طويلة تحت لهيب الشمس .. في الطريق .. أصر السائق على تشغيل أحد الأغاني الشعبية الهابطة بصوت عال وهو يواصل تدخين سيجارته بشراهه .. تطلع للسائق بنفاذ صبر .. تضايقه رائحة السجائر .. بينما تؤلمه أذنه من صوت الأغنية الرديئة .. تذكر آخر مرة تعرض لموقف مماثل .. تلقى السائق درساً قاسياً وانتهى الأمر بهما إلى قسم الشرطة في النهاية، وعاد إلى بيته في المساء بعين متورمة ولكن بعد أن لقن السائق درساً لن ينساه .. لا يريد أن يتكرر الأمر مرة أخرى .. ما زال يتمالك أعصابه بنجاح .. يسرح بأفكاره .. اليوم لم ينتصف بعد وقد أحس أن إصراره على أن يكون مثالياً أمراً صعبا للغاية، أصعب بكثير مما كان يتوقع .. ولكنه ما زال متماسكاً .. نزل في مقدمة الشارع الذي يسكنه .. عليه شراء بعض الطلبات، لا يدري لما تطلب منه زوجته كل تلك الأغراض اليوم .. يحس بصداع رهيب ينتابه .. ربما بسبب الحر .. أو بسبب أكواب القهوة الكثيرة التي تناولها في العمل دون تناول إفطاره .. في الطريق تفاجئ برؤية صديق قديم لم يره منذ فترة طويلة .. رحب به بحرارة .. أصر الصديق على الجلوس معه قليلاً لمعرفة أحواله .. اصطحبه لمقهى مجاور .. جلسا على الناصية بينما انهمر الصديق في سرد ذكريات حياته دون أن يدع له أي فرصة للكلام .. الصداع يزداد .. على الناحية المقابلة للشارع الذي يقوم عليه المقهى رجل يقوم بإشعال النار في صندوق القمامة الممتلئ .. يتصاعد دخان أسود كثيف من الصندوق بينما يحمل الهواء الدخان إلى حيث يجلس .. يسعل بشدة ويحس بالاختناق .. هم بالسعي وراء الرجل الأحمق الذي يشعل القمامة وسط منطقة سكنية والاعتداء عليه .. ولكنه فكر قليلاً .. فهو نفسه أحياناً يقلده كحل أخير بعد أن تتراكم أكوام القمامة أمام العمارة وتتأخر البلدية في جمعها .. يتلاشى غضبه ولكن الدخان الخانق يعمي بصره .. لا يستطيع التنفس ..

ينتهز الفرصة ويستأذن صديقه في الانصراف .. يتنفس الصعداء لأنه تخلص من حديثه الممل .. يسرع لشراء الأغراض .. تفاجئ بارتفاع أسعار معظم السلع .. جن جنونه .. ليس من المنطقي أن تزيد الأسعار بين يوم وليلة بتلك الصورة .. يقولون أن سعر وقود السيارات زاد وكنتيجة لذلك زادت الأسعار .. لا يصدق تلك الحجج الحمقاء .. لو استمر الحال هكذا فلن يكفيه راتبه قريباً .. انتهى فخرج حانقاً ..

الصداع يزداد ضراوة .. توجه إلى منزله وقد بدأ الظلام يعم المكان .. الأكياس ثقيلة بينما نال الإعياء منه تماماً .. يراه أحد جيرانه .. يسرع لتحيته وتبادل قليل من الحديث معه حول مشكلة ما خاصة بالصيانة داخل البناية .. يلعن جاره في سره .. ألا يمتلك عينان ليرى بوضوح كم الأكياس الثقيلة التي يحملها .. اضطر للتوقف معه قليلاً من باب الأدب وهو يهز رأسه موافقاً على كل كلمة يقولها ليسرع بإنهاء الحديث .. انصرف بعدها الجار دون أن يعرض عليه حتى مساعدته في حمل الأكياس .. تمنى لو رجع إلى طبيعته المتهورة ولو لدقائق ليلقن جاره درساً لا ينساه .. هز رأسه بقوة ..انطلق ببطء إلى المنزل .. البواب يسقي الزرع قريباً من مدخل العمارة .. لا يبدو عليه المرض .. يسأل نفسه لما لم يغسل السيارة إذن في الصباح .. ربما هناك عذر آخر .. لم يهتم .. حاول تجاهل الأمر وتقدم ببطء نحو باب المصعد وهو يلهث .. انتظر طويلاً .. لم ينتبه إلى وجود ورقة معلقة تفيد بأن المصعد معطل .. بمجرد أن قرأها، حتى اندفع الدم في عروقه بقوة من الغضب ..لا شك أنه نتيجة لعبث الأطفال صباحاً .. لو كان عاتبهما بقسوة في الصباح لما حدث ذلك .. اضطر إلى صعود السلالم .. وصل إلى الطابق الخامس حيث منزله لاهث الأنفاس بينما يتصبب العرق الغزير منه .. صداع رهيب يستفحل فيكاد رأسه ينفجر .. أمام بيته توقف خائر القوى تماماً .. ولكنه كان سعيداً رغم ذلك .. لأول مرة منذ فترة طويلة يعود لبيته دون مشاكل .. يمر يومه بسلام .. لم يسمح لأي أحد، أو لأي ظرف مهما كان أن يستثير أعصابه ويخرجه عن شعوره.. لم يقم بأي رد فعل متهور أو أحمق .. نجح في أن يدع يوماً واحداً من حياته يمر بسلام أخيراً

يقف أمام شقته بسعادة وإعياء .. يشم رائحة غريبة .. يلاحظ أن كيس القمامة الخاص بجاره ما زال في مكانه وسط الردهة وقد عبثت به بعض الحيوانات فتمزق وانبعثت منه رائحة كريهة تملئ المكان .. لم يهتم .. يحس بالصداع يزداد .. يخرج المفاتيح بصعوبة .. كل ما يحلم به في تلك اللحظة حمام دافئ يزيح به تعب اليوم، ووجبة

ساخنة من يد زوجته الجميلة، وقبلة على جبين ابنه الصغير .. يفتح باب الشقة بإعياء .. المكان غارق في الظلام .. يحاول إشعال الضوء ولكن دون فائدة .. مشكلة ما في الكهرباء كما يبدو .. ولكن الأنوار مضاءة في الردهة الخارجية .. هناك عطل مفاجئ في الكهرباء داخل شقته فقط كما يبدو .. يغتاظ من الأمر .. يبدوالمنزل خاوياً على غير المألوف .. أين ذهبت زوجته .. ربما خرجت لأمر ما .. ينادي البواب ليعرف سبب المشكلة، يحمل الأكياس للداخل .. في تلك اللحظة يتمزق أحد الأكياس فجأة وتتناثر محتوياته في كل مكان .. كان أمراً عادياً يحدث كثيراً .. ولكنه لم يستطع أن يتمالك نفسه وهو يرى بعض الفاكهة التي أرهق نفسه في انتقائها تختلط بكيس القمامة الممزق خارج الشقة .. في تلك اللحظة لم يستطع التفكير.. حاول ولكنه لم ينجح .. تصاعد بركان الغضب بداخله بصورة تنذر بالانفجار .. ولم يستطع منعه .. لم يشعر بشئ سوى بالدماء تندفع إلى عينيه لتصبغ كل شئ باللون القاني .. وبدخان كثيف يتكون بداخله يكاد يخنق أنفاسه .. ركل الباب بعنف أعمى بينما اندفع في السباب بقوة .. انطلقت اللعنات كالرصاص .. بدأ بالبقال الذي أعطاه أكياس غير صالحة ثم بجاره .. انطلق يطرق باب جاره بقوة دون رد .. يكيل له الشتائم بغيظ .. يبدو أنه غير موجود .. زاد غضبه وهياجه .. اندفع يلعن كل شئ .. توجه للدرج يسب البواب الذي يصعد السلالم ببطء شديد .. في تلك اللحظة، ينتبه فجأة على الأنوار وهي تضاء داخل منزله .. يلتفت إلى زوجته التي تقف في منتصف الشقة وحولها مجموعة من أقاربه وأصدقائه .. تمسك بيديها كيكة كبيرة مكتوب عليها اسمه بينما الزينة تملأ جنبات منزله .. لوهلة لم يعمل عقله بالسرعة الكافية لاستيعاب الأمر، ثم تذكر أن اليوم عيد ميلاده .. نسى ذلك تماماً .. أرادت زوجته إعداد مفاجأه خاصة له كما يبدو .. تعلم أنه يحب المفاجأت كثيراً .. لم يتوقعها حقاً .. تسمر الجميع في أماكنهم وهم ينظرون إليه بدهشة بعد فاصل السباب الذي اندفع منه، وانطلق من فمه دون حساب .. تجمد في مكانه للحظات .. لم ينبس بكلمة .. تقدم ابنه الصغير منه .. حضن أبيه في لهفة .. احتضنه في عطف وهو ينظر للآخرين بخجل .. رفع الولد رأسه لأبيه، سأله في منتهى البراءة: " بابا .. يعنى أيه أولاد ال.. اللي قلتها من شوية؟ "

البطل

قلبه يرتجف .. رعشة تسرى في أطرافه ولكنه يتقدم بثبات .. يقترب من الهدف .. تراءى له القصر من بعيد؛ أشبه بحصن منيع، والحراس حوله في كل مكان .. يمسكها جيداً .. يمني نفسه بأن لحظات وينتهي الأمر .. على بعد دقائق من النصر الذي حلم به هو وشعبه .. مائة متر فقط تفصله عن مقر الحاكم الظالم .. الديكتاتور المستعمر الذي طالما أذل شعبه وبطش بهم .. مستعمراً جاء ليستنزف خيرات وطنه .. يحيط نفسه بمجموعة كبيرة من الحراس ليلاً ونهاراً .. يحمونه من بطش الشعب .. قوته الغاشمة التي تساعده على فرض سيطرته وجبروته أكثر على الناس .. سنوات طويلة والناس تحلم بالخلاص منه .. قائمة ضحاياه من الأبرياء تبدو بلا نهاية، وسجونه ما زالت تحجب عن الحياة كثير من معارضيه .. يتلاعب بشعب مسكين يتردى تحت الفقر ويأن تحت وطأة الحرمان، بينما تزداد ثروته .. يقضى على أي شخص يمكن أن يهدده أو يقف في طريقه بلا رحمة .. يزداد ظلمه مع السنوات، حتى وصل الناس إلى مرحلة اليأس تحت حكمه .. يتمنون هلاكه .. محاولات كثيرة قام بها شباب ورجال أبطال لاغتياله ولكنها انتهت كلها إلى الفشل .. ككل مستبد هو .. يجيد حماية نفسه

تلك المرة تم تخطيط كل شئ مسبقاً بصورة جيدة .. كان يعمل بستانياً في قصر الحاكم .. استمر فترة طويلة في عمله حتى بدأ الحراس في الوثوق به .. ثلاث سنوات كاملة ينتظر الفرصة المناسبة .. عندما جاء إلى القصر كان يمني نفسه فقط أن تتاح له الفرصة لقتله وهو يتجول في الحديقة .. أو يتسلل داخل القصر ليقتله .. ولكن لم تتح له الفرصة لذلك أبداً .. دائماً يفرغ حراسه الحديقة من العمال عندما يعتزم التجول فيها .. والقصر ممنوع لأحد الاقتراب منه .. لم ييأس .. استمر في عمله مظهراً إخلاصاً لا مثيل له .. لا يعلمون أنه ينتمي لأحد الجماعات السرية التي تقاوم الحاكم .. شجاعته وقوته دفعتهم للوثوق به في مهمة صعبة كتلك .. ورغم فشل مخططه لكنه استمر بدراسة تحركات الحاكم جيداً .. لاحظ أن الحاكم يهوى الزهور النادرة .. يحتفظ بمجموعة من الزهور الغريبة والنادرة حقاً في ركن خاص في الحديقة أسفل شرفته مباشرة .. يتولى رعايتها ويشرف عليها بنفسه .. خصوصاً تلك النباتات المستوردة من بلده، يوليها اهتمام غير عادي .. وعند سفره أو انشغاله يترك مهمة تنسيقها للبستاني الذي سبقه .. الوحيد الذي يسمح له بالاقتراب من القصر .. واتته

يومها فكرة .. بدأ بالقراءة عن تلك الأزهار .. تقرب من البستاني السابق للاستفادة من خبرته .. وعندما مرض البستاني .. لم يجدوا أفضل منه لرعايتها .. وثقوا به .. أصبح مسموحاً له بالاقتراب من القصر .. أعجب به الحاكم بعد أن أهداه يوماً أحد الزهور النادرة .. اشتراها بمبلغ كبير حقاً بعد أن قرأ عنها الكثير .. داوم كل فترة على إهدائه بعض تلك الأزهار .. يضعها في أناء ويحملها إلى القصر .. في البداية اعتاد الحراس تفتيشه بصرامة .. أحياناً يكسرون إناء الورد للتأكد من عدم احتواءه على شئ .. ثم بدأوا تدريجيا في الوثوق به .. مع مرور الأيام داوم على عمله بكفاءة حتى لم يعد يثير الشبهات .. ينسق الزهور تحت إشراف أحد الحراس في ركن خاص بها من الحديقة تقع فوقه شرفة واسعة تطل على حجرة الطعام الرئيسية .. يهوى الحاكم عادة تناول الإفطار في الشرفة صباحاً مع أسرته ثم الخروج للحديقة للتمتع برائحة زهوره وتفقدها .. تعرض عليه بعض التقارير أحياناً وهو جالس في شرفته .. شهور طويلة مرت .. وطد علاقته مع الحراس، كون علاقات صداقة مع بعضهم، يستعين بخفة ظله وكرمه معهم .. قرر أن يشتري إناء ورد كبير .. وضع بداخله قنبلة .. غطاها بالطين وزرع داخل الإناء نوع جديد من الأزهار .. زهرة برية نادرة .. بينما أخفى جهاز التحكم عن بعد الخاص بالقنبلة تحت ملابسه .. ثم انطلق يحملها إلى القصر ..

تقدم إلى الحراس بثبات .. قلبه يرتعش .. لو اشتبهوا في أمره وقاموا بتفتيشه فهذا معناه ليس هلاكه فقط، بل وهلاك أسرته كلها أيضاً .. اقترب بهدوء .. أوقفه أحد الحراس .. يسأله عما يحمله .. يبلع ريقه بصعوبة .. يبتسم في وجهه ويبدأ في المزاح معه .. يخبره أنها قنبلة .. يضحك الحارس .. يتبادلا المزاح قليلاً ثم يسمح له بعبور البوابة .. يتقدم ببطء .. يده ترتجف وهو يمسك إناء الورد .. لا يلاحظ الحارس الذي يتقدمه ارتباكه .. يتماسك بصعوبة ويستعيد رباطة جأشه .. يتذكر دم الشهداء ممن ماتوا من أجل تلك اللحظة .. يسيطر على توتره .. يدلف إلى الحديقة ويقترب من الشرفة المنشودة .. سيستيقظ الحاكم بعد ساعة تقريباً .. يحفظ كل مواعيده .. يراقبه الحارس وهو يقوم بري بعض الأزهار وتقليم بعضها الآخر .. يضع إناء الورد الجديد في مكان بارز .. بالتأكيد سيلفت نظر الحاكم الزهرة الجديدة .. انتهى من عمله وهو يتصبب عرقاً .. وقف في الحديقة على بعض أمتار من القصر يتظاهر بقص بعض الأعشاب الضارة .. ينقل بصره كل فترة بين الساعة لاستطلاع الوقت، وبين شرفة الحاكم مترقباً بقلق ظهوره فيها

ظل يراقب القصر بحذر .. كل ثانية تمر عليه تزيد توتره .. مستقبله ومصير أمته قد يتعلق بتلك اللحظة .. الدقائق تمر ثقيلة ويزداد خفقان قلبه معها .. يشهد فجأة حركة في القصر .. لا بد أن الديكتاتور استيقظ .. يسرع كل من في القصر لخدمته كالعادة .. يلمح بعض الخدم في غرفة الطعام .. سيتناول الحاكم إفطاره الآن .. يتمنى أن تسير الأمور كما خطط لها .. لحظات ويدخل التاريخ كبطل رفع الظلم عن قومه .. أو على الأقل كشهيد حاول ذلك .. يحلم بالمجد .. تاريخ أجداده ملئ بالشهداء ممن ماتوا وهم يدافعون عن راية الوطن المغتصب .. سيكمل مسيرتهم الأسطورية وسيخلد سيرته الناس .. هدأت الحركة .. الحاكم الآن يتناول إفطاره هو وأسرته في الشرفة .. القنبلة كافية لتدمير الشرفة بمن فيها .. ولكن ما ذنب أسرته، وبعض خدمه من الأبرياء .. سينتظر حتى يهبط للحديقة كعادته كل صباح .. لم يشعر أن وقوفه قد طال وتوقف عن العمل، ارتاب به أحد الحراس .. اقترب منه .. بدأ الارتباك يعاوده ولكنه يتمالك رباطة جأشه بسرعة .. يسأله الحارس بغلظة عما يقوم به .. يخبره أنه يقوم بانتزاع بعض الأعشاب الضارة .. طلب منه الحارس بحدة أن يغادر المكان .. الحارس جديد لا يعرفه .. رأى أحلامه تنهار .. عليه أن يبقى على مسافة قريبة من القنبلة كي يعمل الريموت الخاص بها .. تطلع للحارس مجدداً .. ملامح الجد تعلو وجهه .. الحاكم يبدو أنه أنهى طعامه .. سينزل للحديقة بعدها .. يفصله عن حلمه لحظات .. وهذا الحارس الأحمق قد يقضي على الحلم .. ينهي بطولته قبل أن تبدأ .. الحارس بدأ يرتاب به أكثر .. تظاهر بأنه انصاع لأوامره .. نظر حوله بسرعة يستكشف المكان .. لمح عن بعد بضع حراس منهمكين في الحديث وقد أولوا ظهورهم للقصر .. بينما وقف حارس على الجانب الآخر يطعم أحد كلاب الحراسة .. تعمد أن يسير ببطء حتى دنا من شجرة كبيرة .. التف ورءها .. انحنى على الأرض متصنعاً جمع بعض الأعشاب الضارة .. يتبعه الحارس كظله .. يدنو منه وينهره بطرف بندقيته بقسوة وهو يأمره للمرة الأخيرة بالابتعاد .. يتأكد أن لا أحد يراه .. ينهض فجأة ويباغت الحارس ويسحب سلاحه من بين يديه .. تسمر الحارس في مكانه مذهولاً .. ضربه بكعب البندقية على رأسه قبل أن يفيق من أثر المفاجأة .. اندفعت الدماء من رأس الحارس ولكنه لم ينهار .. قام بسرعة وانقض عليه .. اشتبك معه .. الحارس قوي ولكنه يتمتع أيضاً ببنيان صلب .. سرعان ما تغلب على الحارس وأفقده الوعي .. يسحبه وراء الشجرة ويتسلقها بخفة .. يرى أحدهم يقترب من الحديقة .. يدعو أن يكون الحاكم .. تسلق الشجرة لأعلى أكثر .. وقع بصره عليه .. المستبد ..

يمشي بتمهل .. يميل إلى بعض الأزهار ليستمتع بعبيرها .. يتناهي إلى سمعه وقت أقدام تأت من خلفه .. يخرج جهاز التحكم من تحت ملابسه .. يقبض بأصابعه عليه بقوة .. ينظر للحاكم الظالم باحتقار .. يحيا الشعب وليسقط عصر الظلم .. سيخلد التاريخ تلك اللحظة .. مصرع الطاغية أخيراً .. سيتكلمون عن بطولته لأعوام .. لا يهمه الآن إن كان قد رآه أحد .. لا يهمه سوى لحظة النصر حتى لو ضحى بحياته .. موت الظالم سيضعف جيشه بالتأكيد وستكون ضربة قاضية له .. يقبض على الريموت بتحفز .. يستعد للحظة الحاسمة .. الحاكم يلحظ الزهرة الجديدة .. يقترب منها .. يتطلع إليها بإعجاب.. يدنو من نهايته .. تذكر شعبه .. الآلاف الذين ماتوا على يد هذا الظالم .. القهر لسنين طويلة .. دماء الأنهار التي سالت بسببه .. سيبنى الشعب تمثالاً له .. للبطل المنقذ .. يسمع ضوضاء بجانبه .. يتجاهلها .. يشتد الصوت .. يعلو أكثر .. ربما رآه بعض الحراس ..لا يهتم .. ينظر للحاكم بغيظ .. يده على زر التفجير .. شخصاً من وراءه يناديه باسمه .. لا يلتفت .. أحس بوخز في كتفه .. هل أصابته رصاصة .. ولكن لن يمنعه أحد .. ولن يوقفه شئ .. يشتد الوخز .. يتحسس زر التفجير .. أحس بشئ فجأة يلمس يده .. انتفض فزعاً .. فتح عينيه .. تطلع إلى وجه زوجته للحظات دون وعي .. نظر حوله بلا فهم .. انتبه أخيرا .. كان جالساً على الأريكة داخل منزله المكيف وقد مال رأسه على ظهرها .. يبدو أنه غفا قليلاً كعادته .. تطلع للتلفاز أمامه وبقايا الطعام التي تناثرت حوله .. بدأ يفيق بصعوبة من قيلولته القصيرة .. التلفاز ما زال يعرض أحد أفلام الحرب التاريخية التي تحكي بطولات أجداده وأمجاد قومه .. لا بد أنه غفا وهو يشاهد الفيلم .. "أنت نمت؟ " سألته زوجته .. يفرك عينيه بشدة .. لم يجب .. عندما تأكدت من استيقاظه .. طلبت منه أن يساعدها في حمل طاولة الطعام الثقيلة في حجرة الطعام لتنظيف المكان .. تغادره سريعا .. ظل في مكانه قليلاً بلا حركة .. تثائب بقوة .. شعر بألم في يده .. لم ينتبه أنه كان يمسك بريموت التلفاز في يده وأصابعه تتشبث به بقوة .. أفلت الريموت ثم رماه على الأريكة .. ربت على بطنه .. اكتشف أن علب الطعام بجانبه فارغة .. نهض بتكاسل .. توجه إلى المطبخ .. أعد بعض المأكولات السريعة .. عاد للأريكة مرة أخرى .. وضع الطعام أمامه وبدأ يتابع التلفاز مرة أخرى بحماس .. نسى كل شئ وبدأ يأكل ويضحك وهو يشاهد برنامج كوميدى هذه المرة .. نسى حلم البطولة تماماً في ثوان .. بينما ترك البطل زوجته تقف حائرة وسط حجرة الطعام وهي تحاول جاهدة بشتى الطرق جر مائدة الطعام الضخمة .. بمفردها

الكلب

وقف عبد الباسط على أهبة الاستعداد ينتظر بترقب وصول السيدة .. صاحبة المكان .. لم يكن قد رآها من قبل ولكنه سمع الكثير عنها .. يقولون أنها أرملة غنية .. توفي زوجها من سنوات تاركاً لها كثير من المال ودون أن يترك لها ابناً واحداً .. تأتي كل فترة إلى الريف لتستمتع بقضاء بعض الوقت بعيداً عن زحام المدينة .. ولتشرف أيضاً على مزارعها هنا .. تمتلك فيللا كبيرة تطل على حديقة واسعة حيث تهوى زراعة الورود .. سمع أيضاً أنها تهوى تربية الكلاب والاعتناء بها وهو ما كان يثير خوفه، لا يخشى أكثر من الكلاب منذ عقره أحداها وهو صغير .. ورغم مرور السنوات، إلا أنه ما زال يخشى الاقتراب من أي كلب يراه مهما بدا مسالماً

قطع حبل أفكاره صوت سيارة قادم .. توجه ببصره إلى بوابة الفيللا حيث أسرع بعض الخدم إلى هناك .. سرعان ما توقفت سيارة وشاهد سيدة أنيقة تهبط منها .. ناداه السائق فأسرع عبد الباسط إليه .. عوض السائق .. هو الذي جاء به إلى هنا .. ابن هذه القرية مثله .. عندما علم بحاجتهم إلى بستاني تولى مهمة البحث عنه واختارعبد الباسط في النهاية .. يعلم أنه يعمل أجيراً في حقول الفلاحين .. يعمل أياماً .. وتمر عليه أياماً أخرى بلا عمل .. لا يجيد أي عمل سوى فلاحة الأرض .. لن يكون صعباً عليه بأي حال الاعتناء بحديقة البيت الواسعة، كما أنه عمل دائم وبأجر لا يحلم به

طلب منه عوض أن يحمل الحقائب فاستجاب سريعا .. كان عوض ما زال ممسكاً بباب السيارة مفتوحاً رغم نزول السيدة .. نادت السيدة بصوت دافئ على شخص ما بالداخل .. ظن عبد الباسط أن أحدى صديقاتها جاءت معها .. ولكن سرعان ما رأي كائناً أسود يهبط من السيارة .. كلباً ضخماً تبدو عليه الشراسة .. يحيط بعنقه طوق ضخم ينتهي بسلسلة ذهبية في يد السيدة .. أسرع عبد الباسط لحمل الحقائب بينما اتجهت للداخل يتبعها الكلب كظلها

عاد بعدها إلى عمله في الحديقة .. عند انتصاف النهار خرجت السيدة للتنزه مع كلبها .. وقفت تتطلع إلى الحديقة .. انحنت تداعب كلبها وتربت عليه في حنان بينما استسلم الكلب العملاق لمداعباتها .. وعندما حانت ساعة الغذاء .. أخرج الخادم صينية كبيرة رصت عليها أنواع كثيرة من الطعام .. ظن عبدالباسط أن الطعام للسيدة، ولكنها سرعان ما نادت عليه .. كان يسقي أحد الأشجار قريباً منها فهرع إليها .. أمرته أن

يعتني بالكلب حتى يتناول طعامه واتجهت بعدها إلى الداخل .. وقف الكلب يهز ذيله وهو يرى سيدته تبتعد .. بينما تسمر عبدالباسط لا يدري كيف يتصرف مع كلب بتلك الشراسة

ورغم ارتباكه، لكن لم يكن الخوف من الكلب هو الذي يشغل باله فقط .. كانت الرائحة اللذيذة المنبعثة من الطعام والتي أهاجت معدته الخاوية هي التي بدأت تسيطر على حواسه بل وتطغى على خوفه من الكلب .. نظر الكلب لعبد الباسط بلا اهتمام وهو يتمدد على الحشائش بتكاسل، بينما بدأ عبدالباسط يتطلع للطعام الشهي .. يلتهمه بعينه دون أن يمسه .. أبعد عينيه عن الطعام بصعوبة .. لم يعد يهتم بالكلب النائم على بعد خطوات منه .. بل تطلع نحوه حانقا .. كم هو محظوظ .. لا يشعر بالجوع لأن أحداً يرعاه ويهتم به .. وجد نفسه بعد فترة يتجه ببصره نحو الطعام مرة أخرى دون وعي .. أغمض عينيه لبرهه، بينما ترك الرائحة الذكية تغزو حواسه وتسيطر عليها باستسلام لذيذ

فتح عينيه وأفاق سريعاً من أحلامه .. لا يعلم لما نظر حوله بوجل .. ربما خوفاً من أن يلمحه أحد ويقرأ أفكاره التي تفضحها نظراته الجائعة .. تماسك وابتعد قليلاً عن الطعام .. عندما كان يعمل أجيراً في الحقول كان يأكل أحياناً مما تنبته الأرض .. ويشرب من مياه الترعة .. أما الآن في حديقة كتلك، فلا يوجد شئ سوى الأزهار .. تمنى لو كانت طعاماً فيشبع جوعه الذي يستعر من الأمس حين بات بلا طعام .. أغمض عينيه يحلم باليوم الذي يقبض فيه أول راتب من عمله الجديد .. عوض أخبره أن راتبه سيكون أكبر مقارنة بما كان يحصل عليه من قبل .. سيشتري أولاً طعاماً .. أنواع كثيرة غير التي اعتاد أكلها .. كتلك الموجودة على الصينية أمام الكلب والتي لا يعرف اسمائها ولكن أشكالها تغريه .. وسيلتهمها حتى يتخم معدته .. أفاق من تأملاته على الكلب وهو يتحرك قليلاً بعيداً عن الطعام .. ثم يجلس على الحشائش مرة أخرى بتكاسل .. نظر للكلب في حيرة .. يا لغباء هذا الكائن .. كيف يترك طعاماً بتلك الوفرة

نظر حوله في تردد .. لم يكن هناك أحد في الحديقة سواه .. والأشجار المزروعة أمام الفيللا تمنع من يقف في نوافذ البيت من رؤية ما يدور في تلك البقعة من الحديقة .. وكأن الأشجار تتواطئ معه .. بدأت خواطر غريزية تتوارد على ذهنه تدريجياً .. ثم تحثه وتحركه .. بطيئاً ولكن بثبات يقترب من الطعام .. أغمض عينيه بتلذذ وهو يحلم بأن الطعام له .. ثم فتحهما بسرعة .. لماذا يواصل الحلم بينما هو في عالم الواقع الآن

وحلمه على بعد خطوات منه، بل وفي متناول يده .. اقترب أكثر من الطعام بتردد .. سال لعابه .. وجد نفسه يمد يده إلى صحن الطعام بخوف .. التقط قطعة صغيرة من اللحم ورماها في فمه بسرعة وكأنه يتخلص منها .. بدأ يلوكها بسرعة شديدة وقد تركزت حواسه كلها في عيناه وهو يتابع كل حركة في الحديقة أمامه .. لم يشعر بطعم القطعة الأولى وإن أحس بها تستقر في معدته الخاوية .. مسح فمه بباطن يده ليخفي آثار الجريمة .. تطلع حوله .. كان الكلب ما زال في مكانه مسترخياً يطالع ما يحدث بلا حراك .. والهدوء يفرض سيطرته المعتادة على المكان .. مرت لحظات وهو يقف ساكناً في مكانه لا يتحرك .. وعندما شعر ببعض الاطمئنان .. عاد للتلطع مرة أخرى إلى وليمته .. وبسرعة ولكن تلك المرة بثبات أكبر التقط قطعة ثم أخرى .. أحس بالطعم اللذيذ يجتاح معدته .. بينما سرى خدر لذيذ في عروقه بعد أن بدأ يشعر بالشبع .. كان يتوقف كل برهة ليراقب المكان حوله .. ثم يلتهم تلك الأنواع أمامه التي يراها لأول مرة وإن أعجبه طعمها .. في دقائق معدودة كان قد أنهى الطعام وأسرع يغسل يداه ويمسح ملابسه بعد أن أنزلق بعض الطعام عليها .. مرت بعدها ساعة قبل أن يأتي أحد الخدم ليرفع صينية الطعام

دقائق ثقيلة مرت عليه .. بدأ يستعيد بعدها ببطء قدرته على التفكير .. شعر بالذنب .. وبمدى غبائه أيضاً .. من المؤكد أنهم أدركوا ما حدث الآن .. فليس من المعقول أن يلتهم الكلب كل هذا الكم من الطعام بمفرده .. كان ينبغي أن لا يندفع بهذا الشكل، أن يترك على الأقل بعض الطعام بدلاً من التهامه كله .. وبدأ يلوم نفسه ويحاسبها بقسوة .. سيكتشفون أمره سريعاً لا محالة .. ومن الأرجح أنهم سيطردونه .. بل ربما زجوا به في السجن .. فمن أين له بثمن ما تناوله .. مر الوقت بطيئاُ وهو يقف حائراً يتساءل بقلق عن مصيره .. لمح بعدها السيدة تخرج للنزهة في الحديقة .. ورآها تقترب منه .. بدأ قلبه ينبض بعنف .. تهيأ تماماً للأسوأ، ولكن الغريب حقاً أن السيدة شكرته لأنه أعتنى بالكلب في غيابها .. كانت سعيدة بأن الكلب أنهى طعامه كله، حتى أنها منحته بعض النقود وهي تستمر في مداعبة كلبها برفق .. انصرفت بعدها بينما يتبعها الكلب بنشاط

عندما عاد لبيته .. أسرع ليغسل وجهه .. وقع بصره دون وعي على صورته في المرآة .. وجهه متورداً على غير العادة .. بينما عيناه تلمعان ببريق الصحة .. لأول مرة يرى نفسه بتلك الصورة .. وأحس بالقوة تسري في عروقه .. قوة لم يعهدها في

نفسه من قبل .. يكاد يشعر أنه إنسان جديد بعد أن امتلئت معدته اليوم ولأول مرة بكل ذلك الكم من الطعام الدسم .. نام تلك الليلة بعمق لم يختبره من قبل .. وفي الصباح عاد للعمل بكل نشاط

مر عليه يومان على نفس المنوال .. كانت السيدة تأتي بكلبها كل يوم عند انتصاف النهار تقريباً يتبعها الخادم بالطعام، وتترك له مهمة الاعتناء بالكلب .. في الواقع لم يكن الكلب يأكل إلا القليل من الطعام بينما يتولى عبد الباسط مهمة القضاء على باقى الطعام بمفرده بنجاح بعد أن اطمأن أن لا أحد يشك فيه .. وبدأ عبدالباسط يسمع من عوض حكايات غريبة عن حب السيدة الشديد للكلاب .. خاصة هذا الكلب الشرس الذي مكث معها لسنوات طويلة .. كانت تعشق الكلاب لدرجة أنها لا تكاد تفارقهم عند ذهابها للتنزه .. وتحرص على اصطحابهم للطبيب أسبوعياً بانتظام للاطمئنان عليهم .. بل تهوى أن تطعم كلابها بنفسها أحياناً .. وتساءل عبد الباسط باستغراب لما لم تقوم سيدته بإطعام كلبها الشرس بنفسها كما اعتادت

وبدأ عبد الباسط يصدق تلك الحكايات .. كان يراها تقضى وقتاً طويلاً وهي تلاعب الكلب في الحديقة .. ولشد ما أذهله أن يراها وهي تداعبه وتخاطبه بكل حنان .. بل أنه كان يلاحظ أن عيناها تمتلئان بالدموع ويكسو وجهها حزن واضح عندما تغادر الكلب لبعض لأعمالها .. وعندما تعود تبادر بالسؤال عنه بشغف .. وانتابته دهشة من سلوكياتها، وحسداً على الكلب .. يا له من محظوظ ذلك الكائن ليحظى بكل هذا الحب .. والأهم بكل ذلك الطعام الذي يقدم له يومياً بلا حساب

مرت ثلاثة أيام سريعاً عليه .. في اليوم الرابع لم تخرج السيدة للحديقة طوال النهار على غير المألوف فتساءل عن السبب .. مر به عوض فانتهز الفرصة لتبادل الحديث معه كعادته .. سأله عن السيدة .. أسند عوض ظهره على أحد الأشجار بتكاسل .. أجاب عوض بأن السيدة حزينة لأن كلبها العزيز سيغادرها اليوم .. في الواقع كان الكلب قد عقر أحد الأشخاص أمام بيتها في المدينة من عدة أيام .. واتضح من الكشف عليه أنه مصاب بعدوى خطيرة لا أمل في علاجها .. وقد يشكل خطراً على حياة الناس .. ولهذا السبب أبلغها الطبيب بصرامة بضرورة قتل الكلب قبل أن يتمكن المرض منه .. ولأن السيدة تحب كلبها .. بكت كثيراً ولكنها لم تجد مناصاً من تنفيذ أمره .. تملكتها حيرة كيف يتم الأمر دون أن يقاسي أي معاناة .. كانت مشفقة أن يشعر كلبها بأي ألم .. لن تتحمل رؤيته يعاني .. لهذا جاءت به إلى هنا .. واليوم سيتم

التخلص منه .. ولذلك فهي متوترة الأعصاب ولا تستطيع الخروج للحديقة لرؤية كلبها العزيز

فهم عبدالباسط الآن لما كانت عيناها تلمعان بالدموع كلما فارقت كلبها .. وبدأ عبد الباسط يشعر بالشفقة تجاه الكلب .. صحيح أنه لم يمكث معه فترة طويلة، وما زال يخاف منه .. ولكنه كان كلباً مسالماً على أي حال، كما أنه كان يترك له معظم طعامه ليأكله .. وشعر بحزن أكبر لأنه سيحرم من الطعام الوفير الذي اعتاده طوال الفترة الأخيرة

دار سؤال في رأسه، سأل عوض عن كيفية التخلص من الكلب .. رد عوض دون اهتمام:

- لا تقلق .. كلها ساعات قليلة ويموت .. لن يشعر بأي ألم .. فمن حسن الحظ أن شهية الكلب كانت مفتوحة طوال الأيام الثلاث الماضية .. سأرتاح من هذا الكلب على أي حال فلم يكن يطيقني

لم يسمع عبد الباسط الجملة الأخيرة .. توقف ذهنه عند الجملة التي سبقتها .. وجد نفسه يسأل عوض وكأنه يحادث نفسه بصوت عال: وما علاقة شهية الكلب المفتوحة للطعام في الفترة الأخيرة .. بموته؟

قال عوض بلا مبالاة وهو يتناول تفاحة من داخل جيبه ويقضمها: السيدة لم تتحمل فكرة أن ترى كلبها يضرب بالرصاص .. أو يموت بأي وسيلة مؤلمة .. لهذا اتفقت مع الطبيب على أن تضع له السم في الطعام يومياً .. سيموت برفق تدريجياً دون أن يتألم ..

تنهد بارتياح بعدها مضيفاً: من حسن الحظ أنه كان يلتهم الطعام التهاماً .. سيعجل هذا بحدوث الأمر .. يا له من كلب مزعج .. لا أصدق أننا أخيراً سنتخلص منه

الخبر

استقبلته بالأحضان؛ مضت فترة طويلة حقاً منذ تقابلنا آخر مرة .. في الواقع تفاجئت بزيارته لي في مكان عملي؛ فصديقي مراد لم يقم بذلك من قبل .. رحبت به وأنا أحاول إخفاء دهشتي .. تبادلنا الأحاديث بود لدقائق ونحن نتذكر ماضينا منذ كنا زملاء في مدرسة واحدة .. سادت فترة صمت قصيرة بعدها قطعها وهو يتناول خطاب من حافظة أوراقه .. خطاب مرسل دون شك من مصلحة الضرائب التي أعمل بها كما استطعت أن أميز جيدا من الأختام على غلافه .. وعلى الفور أدركت سبب زيارته .. سلمنى إياه فتفحصته دون تعليق .. تنهد طويلاً ثم اندفع يشكو لي من أحد زملائي مأموري الضرائب الذي بالغ ليفرض عليه تقديرات جزافية – على حسب تعبيره – بناء على دخله .. طلب مني أن أراجع زميلي سعياً لحل المشكلة بصورة ودية .. سألته لما لم يتقدم بشكوى طالما الحق بجانبه كما يؤكد .. رد سريعا بأن الشكاوى غالباً يكون مصيرها الإهمال ولهذا لجأ إلي .. تلفت حوله بحذر .. ثم دنا مني قائلاً بصوت هامس " أنا متعشم فيك .. وعلى استعداد لأي شئ تطلبه "

تجاهلت تلميحه غير المباشر ولم أغضب منه .. كنت أعلم طبيعته جيداً .. اعتاد مراد أن يقضي مصالحه بالرشاوي والإكراميات .. ربما بسبب طبيعة عمله .. مراد صحفي ناجح في أحد الصحف الكبرى .. أقرأ له من حين لآخر .. أعلم أنه يكسب كثيراً .. فبصرف النظر عن راتبه من الجريدة، تصرف له مكافأت ضخمة إذا نجح في القيام بسبق صحفى مميز أو أجرى حوار مع أحد المشاهير، أو تمكن من نشر تحقيق جرئ أو قصة غريبة .. يستخدم تلك الأساليب الملتوية كثيراً ليحصل على أى خبر مثير أو فضيحة تثير الاهتمام .. كنت متأكد أنه حاول رشوة زميلي ولكنه فشل .. ولهذا لجأ إلي .. وعدته أن أبحث موضوعه .. وإن لم أعده بتخفيض الضرائب المستحقة عليه .. شكرني بشدة .. سألته عن أحوال أسرته وهو يحتسي القهوة التي طلبتها له، ثم تطرق الأمر إلى السؤال عن عمله .. تنهد وسكت قليلاً .. ثم اندفع يشكو لي : " تصدق من أكتر من أسبوع مش لاقي حاجة أكتبها .. وكل يوم رئيس التحرير يتصل بي يستعجلني .. وفي الآخر يفرضوا علي ضرايب قد راتبي .. يرضيك كده؟ "

ضحكت .. تذكرت شيئاً فجأة .. قلت له بسرعة: " والله أنت ابن حلال .. أنا عندي ليك قصة ممتازة " .. بدا الفضول على وجهه .. اعتدل في مقعده باهتمام .. تابعت:"

تصور أن رئيس المصلحة عندنا اتحجز على عربيته من يومين .. ماقدرش يدفع باقي أقساطها .. تخيل .. رئيس مصلحة ضرايب في محافظة كبيرة طول عمره بيقع تحت أيده أصحاب الملايين .. وفنانين مشهورين وكبار رجال الدولة .. هو اللي كان بيقدر الضرايب عليهم بنفسه أحياناً .. أشترى عربية جديدة بدل العربية القديمة اللى طلعت عينه وبقت خردة .. راح لمعرض السيارات واختار عربية صغيرة على قده .. صاحب المعرض استغرب لما عرف أنه عايز يشتريها بالتقسيط .. أصله كان عميل عنده .. مقدرش يدفع غير قسط واحد .. وبعدين بنته اتخطبت .. ومصاريف الجواز قطمت ضهره .. وكمان مراته المسكينة .. مريضة بالكلى وبتعمل غسيل كلى مرتين في الأسبوع .. خمس شهور مش قادر يدفع أقساط العربية .. عمره ما كان يتخيل أن صاحب المعرض يجيب الشرطة ويسحب منه العربية وهو في الشغل .. تصور الموقف .. كانت فضيحة ليه .. وقدام كل الموظفين "

كان زميلي ينصت صامتا دون أن يبدو كثير من الاهتمام على وجهه .. أردفت بحماس: " راجل زي ده المفروض يتعمله تمثال لشرفه وأمانته .. والصحافة تكتب قصته .. والبركة فيك .. تعرف الناس أن الدنيا لسه بخير .. راجل أمين مفيش فيه أكتر من الفاسدين"

قال صديقي معقباً :" فعلاً .. عملة نادرة "

أكملت بحماس أكبر: "غيره عمل الملايين .. ومن مراكز ومناصب أقل من منصبه .. تعرف أن النائب بتاعه أتمسك أمبارح بس وهو بياخد رشوة .. تصدق .. طلب من تاجر كبير رشوة علشان يخفض الضرايب عليه .. لكن التاجر بلغ عنه .. سجله بالصوت وهو بياخد الرشوة .. وهيتعرض على النيابة النهاردة .. بيقولوا أن عنده أملاك كتيرة .. عمارة هنا وشالية في الإسكندرية .. ولاده كانوا في أغلى مدارس اللغات .. وعربيته تمنها قد راتبه في عشر سنين .. لكن رئيس المصلحة بعد خمسة وعشرين سنة خدمة لحد النهاردة ساكن في بيت بالإيجار هو وأولاده .. مقدرش حتى يشترى شقة باسمه .. وعمره ما سافر مصيف .. وأولاده اتعلموا في مدارس حكومية .. وفوق ده كله راجل زي السكر وعنده إخلاص في العمل .. أحياناً بيفضل شغال في المصلحة لحد المغرب .. يراجع كل كبيرة وصغيرة بنفسه علشان يتأكد أن ما فيش عميل اتظلم .. وعلشان كدة مصلحتنا من أفضل مصالح الضرايب على مستوى الدولة

.. وعمره ما طلب زيادة راتب .. أيه رأيك تعمل مقابلة معاه .. ولا تحب تعرف تفاصيل أكتر عنه"

اعتدل زميلي في جلسته وقد بان عليه التركيز فيما قلته .. شكرني ثم نهض من مكانه .. قال أنه سيعرف التفاصيل بطريقته .. أستأذن بعدها فجأة في الانصراف .. وغادر المكتب بسرعة

انشغلت بعدها في عملي وعدت للبيت مرهقاً .. نسيت الموضوع تماماً وسط زحمة الأحداث اليومية .. في الصباح توجهت للعمل مبكراً واشتريت الجرائد كعادتي وأنا في طريقى إلى هناك .. فتحت الصفحة الأولى وتصفحت العناوين الرئيسة بسرعة .. قرأت تنويه عن تحقيق صحفي هام في الصفحة الثانية .. طالعت باقى العناوين الرئيسة ثم فتحت الصفحة الثانية .. اتسعت عيناي من الدهشة وأنا أقرأ الخبر الذي توسط عنوانه الصفحة

حاميها .. حراميها

ضبط نائب رئيس مصلحة ضرائب متلبساً وهو يقبض رشوة

وتحت الخبر عدة عناوين فرعية قرأت منها

النائب استغل منصبه .. وثروته تقدر بالملايين

من يوقف مسلسل الفساد الذي انتشر في تلك المؤسسة وطال كبيرها وصغيرها

تسمرت في مكاني وواصلت القراءة .. كان التحقيق يتحدث بإسهاب عن النائب المقبوض عليه ويعرض بعض فضائحه بالإضافة إلى نشر صورة له وهو يخرج من تحقيق النيابة .. ويتحدث بشكل غير مباشرعن فساد منظم لكل الموظفين في المصلحة .. وتلميحات على فساد رئيس المصلحة أو على الأقل تواطئه مع ذلك الفساد واستغلاله لمنصبه ومشاركته للنائب في كل جرائمه .. وأنهى المقال بمطالبات للمسئولين بسرعة التحرك وفتح تحقيق عاجل بعد انتشار التجاوزات في المصلحة بشكل كبير مع الحرص على سرعة نشر نتائج التحقيق للجمهور .. كان التحقيق على صفحة كاملة .. ورغم صدمتي مما قرأته، لكن ما لفت نظري حقاً هو إمضاء كاتب

المقال في نهايته .. كان موقعاً باسم ليس بالغريب عنى .. أسم يبدو مألوفاً بالتأكيد.. كان ممهوراً بتوقيع صديقي مراد

الشبح

اعتدت التردد على مكتبة قديمة ضخمة في وسط البلد لشراء احتياجاتي من الكتب .. فضلت الشراء من هناك لعدة أسباب .. أولها هو منظر تلك الرفوف الكبيرة الممتلئة بالكتب والذي لم أجد له مثيلاً في غيرها من المكتبات الصغيرة الحديثة .. كان المجال هنا أوسع لاختيار ما أريده .. ولم يكن صاحب المكتبة يمانع أن أتنقل بين جوانبها .. أقلب بين الكتب وأطالع محتوياتها حتى أعثر على ضالتي .. كما أنه يساعدني إذا سألته .. يأت لي بأي كتاب أطلبه مهما كان نادراً .. لفت انتباهي أيضاً أنه يحتفظ بموسوعة كبيرة من الكتب النادرة حقاً لا أعلم كيف جمعها ولا تتوافر إلا لديه .. أما الدافع الرئيس لتفضيلي المكان عن غيره .. هو أن أسعار الكتب هناك مناسبة لي نظراً لأن معظمها قديم ومستعمل

توطدت العلاقة بيني وبين صاحب المكتبة نتيجة لكثرة ترددي عليها .. عجوز نحيل أشيب الشعر يرتدي نظارة ضخمة لا تخفي نظراته الحادة .. قليل الكلام نادر الابتسام ولكنه يحافظ على صلة قوية بينه وبين زبائنه .. يحفظ كل شئ عن زبونه كما يحفظ مكتبته .. أغيب أحياناً لأشهر ثم أعود إليه فأتفاجئ به يسألني عن أخر كتاب اشتريته ورأيي فيه دون أن ينسى عنوانه .. يدهشني هذا الكهل دوماً بذاكرته القوية

عندما أدرك شغفي بكتب المغامرات والرعب، أهداني هذا الكتاب، وعلى شفتيه ابتسامة مبهمة .. تناولت الكتاب منه بشوق وفضول .. أحب قراءة كل القصص بصفة عامة، ولكني أهوى تلك التي تدور حول عالم السحر والأساطير بشكل خاص، أو عالم الرعب الغامض .. أتابع تلك النوعية من القصص بشغف، وأحتفظ بمكتبة صغيرة منها داخل بيتي .. لا أعلم سر تعلقي الدائم بها.. ربما بدأ الأمر معي منذ كنت صغيراً أهوى مطالعة صفحات الحوادث المنتشرة في الجرائد اليومية التي يحضرها أبي وأترقبها بلهفة .. ثم انتقل غرامي إلى كتب الجيب الرخيصة بأحداثها المليئة بالإثارة المفرطة التي تناسب خيال المراهقين .. وتدرجت على قراءتها حتى أصبحت أحتفظ بمجموعات كبيرة منها وبدأت أنجذب بعدها لأعمال أشهر كتاب الرعب وأسعى بانتظام لشراءها .. كنت في الفترة الأخيرة أتردد على المكتبة بانتظام .. لاحظ صاحب المكتبة شغفي بتلك النوعية من الكتب وعندما سألني لم أنكر .. عبرت عن استيائي لصعوبة العثور على كتاب جيد حقاُ في الفترة الأخيرة .. الكتب الجديدة تخلو

من المتعة التي أبحث عنها .. قصص الرعب العادية لم تعد أحداثها تثيرني، أو استمتع بقراءتها كالسابق .. عبرت عن خيبة أملي من الإصدارت الحديثة التي لا تتصف أحداثها بالإثارة الكافية لقارئ مخضرم مثلي .. لمحت في عينيه بريق خاص وهو يسمعني .. طلب مني الانتظار ثم غاب في الداخل للحظات .. رجع بعدها وناولني كتاب متوسط الحجم يعلوه التراب

تناولت الكتاب بين يدي بلهفة .. أزحت الغبار المتراكم على غلافه .. جذبني شكل الغلاف من الوهلة الأولى .. قلبت في صفحاته بحرص وأنا أتأمل الخط المكتوب به .. يبدو كتاب قديم بالتأكيد من صفحاته الصفراء ونوع الخط وأسلوب طباعته الذي لم يعد دارجا في الكتب الحديثة .. رأيت ابتسامة العجوز المبهمة وهو يخبرني بثقة أن الكتاب سيعجبني .. لأول مرة أراه مبتسماً منذ عرفته.. سألته عن ثمن الكتاب .. لم يرد .. طلب مني أن أقرأه أولاً فإذا نال إعجابي عدت ودفعت ثمنه .. لم يعتاد فعل هذا من قبل .. هل كان كرم منه لأني زبونه القديم، أم نوع جديد من الدعاية لتسويق كتبه .. شكرته على أي حال .. تناولت الكتاب ومضيت إلى بيتي مدفوعاً بالشوق لقراءته .. بينما وقف يرمقني بصمت أمام مكتبته وأنا أغادر

عدت للبيت متأخراً بعد سهرة مع بعض أصدقائي .. بدلت ملابسي .. شعرت ببرودة الجو .. ارتديت بيجامتي الصوف وفوقها معطف منزلي داكن اللون فسرى إلى جسدي بعض الدفء .. هيئت نفسي تماماً لمغامرة قصصية جديدة .. أطفئت النور .. غرقت الغرفة في الظلام إلا من إضاءة خفيفة تأتي من لمبة إنارة صغيرة في السقف .. تأكدت من إغلاق النوافذ جيداً .. ارتحت للصمت التام من حولي .. أغلقت هاتفي حتى لا يزعجني أحد .. تمددت على الكرسي الأسود الضخم .. تطلعت للساعة .. الوقت متأخر .. قبل منتصف الليل بقليل .. الوقت المثالي لقراءة الكتاب .. أعشق تهيئة أجواء خاصة من الصمت والسكون التام قبل قراءة أي قصة رعب جديدة .. أجواء تتناسب مع طبيعة ما اقرأه كي أتمكن الاندماج والاستمتاع أكثر .. تفقد قصص الرعب لذتها وإثارتها إذا كان هناك ضوضاء حولك .. أو سمحت لأحد بمشاركتك المكان

أمسكت الكتاب وقلبت فيه .. كتاب متوسط الحجم تزيد صفحاته عن المائة .. لاحظت أن بضع صفحات قليلة في نهاية الكتاب تركت فارغة .. بلا سطر واحد .. لم أهتم .. ربما خطأ مطبعي

بدأت القراءة .. تبدأ القصة بمقدمة شيقة .. الأحداث تتوالى ببطء لكنها ممتعة .. جذبتني الرواية تماماً من البداية .. شخصيات مرسومة بعناية .. تسلسل أحداث مثير .. نسيت كل ما حولي تماماً .. لم يخيب صاحب المكتبة ظني وأهداني قصة فريدة حقاً .. لم أشعر بالوقت .. مرت ساعة تقريباً وأنا أقرأ بنهم .. ألتهم الصفحات ببطء وتلذذ .. انتهيت من الفصول الأربع الأولى .. أحسست بإرهاق بسيط في عيني .. وتصلب في جسدي .. قمت لإعداد كوب من الشاي الساخن .. خاصة وأن البرد بدأ يتسلل إلى أطرافي .. غبت لدقائق .. أحسست بعدها بنشاط غير عادي .. وعدت لمتابعة القراءة مرة أخرى بحماس أكبر

سرعان ما اندمجت مرة أخرى .. خط الأحداث يزداد غموضاً وإثارة .. حواسي كلها تندمج مع أحداث الرواية .. يجذبني تعاطف خاص مع بطل العمل لا أعلم سبباً له .. عادة لا أتعاطف مع شخصيات قصص الرعب .. بل تتملكنى أحياناً رغبة سادية في رؤية معاناتهم والاستمتاع بالنهايات المؤلمة لهم .. قصص الرعب لا تناسبها سوى النهايات المأساوية بل وتزيد مصداقيتها ومتعتها .. تشدني أحداث الرواية إلى عالم آخر .. أتابع بقلق السقوط المتتالي لشخصيات الرواية واحداً تلو الآخر أمام شبح غامض يقضي على كل من يقف في طريقه بلا رحمة .. أركز مع محاولات البطل الفاشلة للتخلص منه أو حتى الهرب بلا فائدة .. وصلت إلى الفصل الأخير سريعاً .. أكبر فصول الكتاب

أرحت عيني قليلاً .. تطلعت للساعة، تخطت الثانية صباحاً .. تأخر الوقت ولكني أعلم بالتجربة أنه لن يطاوعني النوم قبل إنهاء القصة .. بدأت في الفصل الأخير .. اندمجت في أحداثه بشكل أكبر من باقي الفصول .. تزداد الأحداث غموضا .. تركزت حواسي تماماً على سطور الرواية .. لم أعد أنتبه لأي شئ مما يدور حولي .. لم أسمع صوت النسيم وهو يداعب شباك النافذة المغلق .. أو خشخشة بعض أوراق الشجر الملقاة بإهمال فوق حديقة المنزل .. لم أسمع صوت الثلاجة الذي يأتي أعلى من المعتاد .. أو ألاحظ تجمد أطرافي من البرد رغم إغلاقي لكل منافذ الهواء .. حتى كوب الشاى الساخن الذي أحضرته أهملته حتى فقد حرارته .. كنت أترقب نهاية الرواية ومعرفة مصير البطل بشغف .. اقتربت من نهاية القصة والمطاردة مستمرة .. أقرأ بسرعة وأكاد ألتهم الأسطر التهاماً .. البطل يظن أنه نجح في الفرار، هل يعثر الشبح عليه، ويتلذذ بتعذيبه وقتله بقسوة وبطء كما حدث مع ضحاياه السابقين ..

قاربت من الوصول لنهاية الفصل الأخير والرواية كلها .. قبل أن تقع عيناي على تلك الأسطر في نهاية الصفحة التي أقرأها

" تسلل ببطء شديد نحوه، بدأ الشبح يدنو من الشخص الجالس الذي لم يشعر بوجوده، أخيراً عثر عليه بعد طول مطاردة، اقترب منه بحذر، لم ينتبه له، مستغرقاً في القراءة، مسترخياً على كرسيه الوثير ذو اللون الأسود، مرتدياً معطفاً من الصوف لا يحميه من برودة الجو وأمامه يستقر كوب الشاي الذي فقد حرارته . لا يسمع سوى صوت تنفسه مصحوباً أحياناً بصوت هدير مروحة الثلاجة العالي، يقلب في كتاب قديم أمامه على ضوء خافت، اقترب منه ببطء و هو يستمتع برؤية آخر لحظات ضحيته التالية، و .... "

انتهت الصفحة .. قلبتها بسرعة .. اصطدمت عيني برؤية الصفحات البيضاء في نهاية الكتاب

الضريبة

علمتني الحياة أن لكل شئ ضريبة .. وأنها مثل تاجر بخيل لا يمنح لشخص شيئاً دون مقابل .. وبدأت في الإيمان بذلك من صغرى .. كانت جدتي التي علمتها تجارب الحياة تقول لي أن الإنسان يدفع ثمن لكل نجاح يحققه في الحياة، والثمن يختلف من شخص لآخر، وكذلك من نجاح لآخر، ولم أكن أفهم كلامها في البداية، لكني بدأت أستوعب معناه بل وأؤمن بصحته مبكراً .. أتذكر أول تجاربي مع معادلة الحياة والتي بدأت في سن مبكرة عندما نجحت بتفوق في نهاية مرحلتي الإعدادية، وللمرة الأولى جاء ترتيبي الأول على مدرستي .. لأتعرض بعدها لحادث وتكسر ساقي .. وأقضي أجازتي كلها عاجزاً عن الحركة مستلقياً على سريري أتطلع بحسرة إلى ساقي المحاطة بالجبس الأبيض بينما أرى زملائي يلهون بمرح في الخارج .. وعندما نجحت بعدها بسنوات قليلة والتحقت بالكلية التي أحبها وطالما حلمت بها .. خسرت أفضل أصدقائي بعد خلاف طارئ وانتقلت للسكن بعيداً عن أهلي

وهكذا مضى بي الزمن وأنا أدفع ضريبة كل نجاح أحققه .. والدنيا علمتني أنها ليست كريمة لتهبني شئ دون مقابل .. وتعودت أن أترقب الثمن بحذر كلما حققت نجاحاً .. فما أن أنهيت دراستي الجامعية وعثرت بعدها بأسابيع قليلة فقط على عمل مميز في شركة مرموقة وبراتب عال لا يحلم به زملائي .. حتى تفاجئنا بقرار إزالة للبيت القديم المتهالك الذي يأوينا أنا وعائلتي، واضطرت أسرتي إلى الانتقال من بيتنا القديم الرحب إلى شقة صغيرة متواضعة

انشغلت بعدها بعملي لفترة ليست بالقصيرة حتى تعرفت في بيتنا الجديد على ابنة الجيران بالمصادفة وتعلقت بها فغيرت حياتي .. تبادلنا الحب فلم تكد تمضي بضع أشهر حتى قررت التقدم لخطبتها .. ترددت كثيراً في البداية خاصة أني لا أملك من حطام الدنيا ما يشفع لي، إلا أن أهلها رحبوا بي رغم قلة إمكانياتي وقتها .. دفعني ذلك إلى الاجتهاد أكثر في العمل لتحقيق النجاح الذي حلمت دوماً به .. واصلت العمل ليلاً ونهاراً بلا راحة لتأمين مستقبل أفضل.. أهملت صحتي كثيراً حتى تفاجئت يوماً بآلام هائلة تهاجمني .. خضعت لعملية عاجلة لاستئصال الزائدة التي تجاهلت عن عمد البوادر الأولى لالتهابها، واضطررت لترك عملي لفترة طويلة بعد الجراحة كي أستعيد عافيتي مرة أخرى .. وقبل انتهاء فترة النقاهة تفاجئت باستغناء الشركة عن

خدماتي بسبب غيابي الطويل .. وخسرت العمل بعد أشهر قليلة فقط من خطبتي .. بحثت كثيراً عن عمل آخر مناسب دون جدوى .. هداني تفكيري بدافع اليأس إلى البحث عن فرصة عمل بالخارج رغم رفضي لتلك الفكرة من قبل وتخوفي الشديد منها .. تواصلت مع عمي الذي يعمل من فترة طويلة بأحد الدول العربية .. مرت أشهر بعدها حتى نسيت الأمر، وتنقلت خلالها بين عدة وظائف مؤقتة قبل أن ينجح عمي أخيراً في الحصول على عقد عمل مميز لي .. طرت فرحاً بالوظيفة الجديدة .. ولكني في المقابل اضطررت إلى تأجيل زفافي حتى تستقر أوضاعي في الخارج .. وسافرت وصورة خطيبتي لا تكاد تفارق ذهني

قضيت عامين في الغربة لأشعر أنهما دهراً كاملاً بعيداً عنها .. وفي أول أجازة لي تم الزفاف .. اصطحبت زوجتي بعد انتهاء الأجازة للخارج .. شجعني زواجي على الاجتهاد أكثر في العمل مع عدم إهمال صحتي بعد أن تعلمت الدرس من تجربتي الأولى .. حققت نجاحاً كبيراً بعد أن استقرت أحوالي .. ونلت بسرعة ترقية حسدني عليها زملائي .. وبدأت بوادر الحمل تظهر عند زوجتي ..عشت وقتها حقاً أسعد أيام عمري .. وظننت واهماً أن الدنيا أسقطتني من حساباتها الدقيقة أخيراً .. قبل أن أستيقظ يوماً فزعاً على صراخ زوجتي وتفاجئت بها وهي تنزف، نقلتها سريعا إلى المستشفي .. وهناك أجروا لها عملية عاجلة خرج طفلي الأول منها للعالم بلا حياة .. صدمتني التجربة .. وبكيت بألم ربما لأول مرة في حياتي .. ولم يخفف عنى إلا اطمئناني على سلامة زوجتي في النهاية .. وهكذا توالت بعدها سنوات الغربة .. ولم تغير الدنيا عادتها الأصيلة معي .. معادلة الحياة وقانونها الثابت الذي لا يتغير .. كل لحظة سعادة يقابلها لحظة ألم .. وكلما حققت نجاحاً دفعت ضريبته، عاجلاً أو آجلاً أدفعه .. فعندما أنجبت زوجتى أخيراً ابنى الوحيد .. خسرت مبلغاً كبيراً من المال في المضاربة بالبورصة .. وعندما عدت للوطن بعد فترة غياب طويلة .. وافتتحت شركتي الخاصة وحققت نجاحاً كبيراً .. رحلت والدتي العزيزة

وهكذا سارت بي الأيام .. وتعودت أن أكسب شيئاً فأخسر شيئاً آخر أحبه .. وكل مكسب في حياتي له ضريبة أؤديها مرغماً .. أحياناً تكون الضريبة بسيطة وسهلة .. كأن ينجح ابنى فيخسر فريقي المفضل مباراة هامة .. أو أن أنجح في عقد صفقة مهمة فيظهر خلاف بسيط وطارئ بينى وبين زوجتي، أو أتعرض لوعكة صحية بسيطة .. وأحياناً تكون الضريبة باهظة لا أستطيع تحمل ألمها .. فلا أنسى يوم تخرج ابني من

كليته .. وبدأت أراه شاباً يافعاً أمامي يتلمس خطوته الأولى على طريق حياته العملية .. حتى رحلت زوجتي الحبيبة التي عاشت معي كل متاعب الحياة قبل أفراحها

كنت قد اقتربت من الستين .. وبدأت قواي تضعف .. وبات للحياة طعم مختلف بعد وفاة زوجتي .. بدأت أشعر بالوحدة والضعف بدونها .. وأصبح كل اهتمامي في الحياة منصباً على ابني

تزوج ابني أخيراً واكتملت فرحتي به .. انتظرت بلهفة أنباء عن قدوم حفيدي الذي لم أعد أحلم إلا به .. ولكن أشهر طويلة انقضت دون جديد .. ورغم تأكيد الأطباء على سلامة كل منهما .. إلا أن الأيام توالت سريعاً دون أن تلوح في الأفق أي بادرة أمل حتى اكتملت ثلاث سنوات .. وتفاجئت يوماً بزيارة من ابني يحمل إلي خبر حمل زوجته أخيراً بحماس .. شعرت أن الحياة تعود إلي من جديد .. وأن دماء جديدة تسري في عروقي .. تخيلت نفسي وقد أصبحت جداً أخيراً .. اللحظة التي لم أعد أشتاق إلا إليها .. توالت الأيام بعدها سريعة وأنا في غفلة عن حسابها قبل أن أتلقى صباح أحد الأيام اتصالاً من ابني يبلغني فيه أن زوجته بالمستشفي .. هرعت إلى هناك يصاحبني قلق يكاد يفتك بأعصابي .. التقيت ابني وهو يذرع المكان أمام باب غرفة العمليات بتوتر واضح بينما ترتسم على وجهه كل علامات القلق والخوف .. تحرك شعوري بالشفقة نحوه .. حاولت طمأنته دون جدوى .. كان في حال من التوتر يصعب معها تهدئته .. علمت منه بصعوبة أن زوجته تأخرت في غرفة العمليات والطبيب أبلغه بأن الولادة متعسرة .. جلست بجواره أخفي توتري ولا أدري كيف أتصرف .. مرت علينا الدقائق ثقيلة وابني بجواري في عالم آخر يحكمه القلق، وحفيدي الذي أشتاق إليه دون أن أراه لا يعلم أحد مصيره .. وانتابني خوف أن تتكرر مأساتي مرة أخرى يوم أن جاء أول طفل لي إلى الدنيا بلا حياة .. تطلعت إلى ابني بخوف وقد غمرني شعور بالعطف نحوه .. رجعت بذاكرتي للوراء وتذكرت يوم كنت في نفس موقفه .. آلمني أن أقف عاجزاً ليس بإمكانى القيام بشئ لمساعدته .. جلست بجانبه وسرحت مع تيار أفكاري .. تراءت أمامي كل صور حياتي ومشاهد تلك الرحلة الطويلة من التجارب والآلام حتى انتهت بي إلى هنا .. وربما .. للمرة الأولى بدأت أسترجع كل تجارب عمري بمنظور آخر .. أراها الآن أمامي من زاوية جديدة لم أعهدها من قبل حقا .. أتذكر عندما انكسرت ساقي وقضيت أجازتي كلها في السرير .. لم يكن يسليني وقتها سوى الكتب التي يحضرها والدي .. والتي لولا ما

حدث ما قرأتها، وهي التي شكلت ثقافتي وأفادتنى كثيراً فيما بعد .. أتذكر الآن فقط عندما انهار بيتي القديم الواسع وانتقلت الأسرة إلى السكن الجديد .. ورغم المعاناة بسبب ضيق السكن وتواضعه .. إلا أني تعرفت هناك على زوجتي الحبيبة وشريكة عمري .. كيف نسيت أن بسبب مرضي وفصلي من عملي ما فكرت في البحث عن عمل في الخارج وأنا الذي كنت أرفض الفكرة من قبل، ولو كتب لي أن أستمر في عملي القديم ما كونت ثروتي أو حققت نصف ما حققته في الغربة في سنوات قليلة .. والدرس القاسي الذي تعلمته عندما جاء ابني للدنيا وخسرت مبلغاً كبيراً من المال في البورصة .. تعلمت منه أن لا أخاطر بأموالي بعدها مرة أخرى إلا بعد دراسة وحساب دقيق، وربما كان هذا سبب نجاحي بعد ذلك .. تذكرت كل ذلك .. وتعجبت كيف لم أفكر يوماً بتلك الطريقة من قبل .. وأحسست أن الدنيا برغم أنها فرضت علي ضرائب ثقيلة أحياناً .. ولكنها منحتني في مقابلها ما هو أكثر قيمة .. وأن ضرائبها رغم فداحتها كانت أحياناً درساً لم أكن لأتعلمه إلا بهذه الطريقة ..

أفقت من شرودي على صوت باب حجرة العمليات وهو يفتح فجأة وتندفع منه الممرضة .. ثم بعدها بصراخ طفل صغير يشق هدوء المستشفي .. ورأيت ملامح الفرح ترتسم على وجه ابني عندما أسرعت أحد الممرضات إليه تحمل البشارة بقدوم ابنه .. طفرت الدموع من عينيه فرحاً ومن عيني أيضاً .. ولكن كان علينا الانتظار قليلاً لرؤية الوليد .. لم يستطع كلانا الجلوس .. وقفت بجوار ابني مترقباً تلك اللحظة التي أرى فيها حفيدي .. وعندها قفز إلى ذهني سؤال مفاجئ أقلقني .. خاطر خبيث سيطر على عقلي لم أستطع دفعه بعيداً .. ما الضريبة التي علي أن أدفعها تلك المرة مقابل تحقيق هذا الحلم .. هل سأخسر شخصاً قريباً .. هل سأعاني في صحتي أو في العمل .. أو يكتب على ما هو أسوأ .. لا أعلم .. وأزعجني الخاطر كثيراً حتى طغى على فرحتي .. مرت ساعة على انتظارنا قبل أن تسمح لنا الممرضة بالدخول أخيراً لرؤية الطفل .. رأيت حفيدي نائماً باستسلام بين يدي أمه .. قفز قلبي فرحاً وأنا أطالع كتلة اللحم الحمراء العزيزة تلك .. أحسست بقوة غريبة تسري في جسدي الواهن .. احتضنت الولد عالياً بين يدي برفق .. نظرت إلى وجهه البرئ وقد بدأ جسمه يتحرك قليلاً ليفيق من نوم ساحر، ويلقي بنظراته الأولى البريئة على وجهي .. وتلاشت مع رؤيته بين ذراعي كل خواطري .. في تلك اللحظة لم يعد يهمني الضريبة التي سأدفعها لاحقا من أجل رؤية هذا الوجه الملائكي .. مستعد الآن لأي ضريبة مهما

كانت بل وسأرحب بها برحابة صدر .. وجدت نفسي بلا إرادة أرفع بصرى إلى السماء وأنا أحتضن بين ذراعي حفيدي الصغير .. ودون وعي ابتسمت برضا

العدو

كانت تجلس في حديقة الفيللا وهي تداعب كلبها الضخم .. استلقى الكلب على الحشائش بتكاسل بينما استسلم تماماً لمداعباتها .. هكذا اعتاد الجيران على رؤية هذا المشهد كل صباح منذ هبطت السيدة وكلبها على الحي .. تتناول أفطارها في الحديقة وهي تطالع الجرائد بينما يقبع الكلب تحت أقدامها .. اقترب بعض الأطفال من سور الحديقة .. وقف بعضهم يتطلع إلى الكلب بفضول .. زمجر الكلب قافزاً نحوهم فتراكضوا بعيداً عنه بخوف

كان من النادر حقاً رؤية كلب مثله .. على الأقل في محيط الحي .. كان حي هادئ من قبل تسكنه العديد من العائلات الأرستقراطية قبل أن تهبط عليه صاحبة الكلب فجأة .. رجعت من الخارج عند وفاة والديها .. أقامت في الفيلا الكبيرة التي ورثتها عنهم .. أثار مجيئها تساؤلات العديد من جيرانها .. ولكن ما أثار انتباههم أكثر هو الكلب .. لم يرى أحد مثله من قبل .. يتمتع بضخامة هائلة وشعر غزير أسود يكسو جسده .. فم واسع يكشف عن أنياب حادة وعينان مخيفتان .. تثير رؤيته الفزع .. أتت به من الخارج .. يقولون أنه كلب هجين تتميز سلالته بالعنف والشراسة .. يظل نباحه المخيف يوقظ الجيران كل ليلة .. رؤيته والزبد يتطاير من فمه لا تدفع أحد لمجرد التفكير في الاقتراب من الفيللا رغم جمال صاحبتها

قالت لها أحد صديقاتها من قبل: لا أعرف كيف تحبين هذا الكلب

في الواقع كانت تحب كل الكلاب بصفة عامة .. ربما لأن الكلاب تمتلك حاسة الوفاء التي افتقدتها في علاقاتها مع رجال كثيرون من قبل .. ولكن ذلك الكلب تحديداً كانت تتعلق به بشكل غير عادي .. عندما عادت من الخارج لم تكن تفارقه إلا ساعات قليلة في اليوم .. كانت وحيدة بعد وفاة والديها .. وإقامتها في الخارج لفترة طويلة قطع كل صلتها بأصدقائها القدامى .. ولهذا كانت تستغني بصحبته عن الناس .. كما أنها شعرت بالخوف والعزلة أكثر وسط ذلك الحي الراقي حيث معظم سكانه من كبار السن الذين لا يعشقون سوى الهدوء ويتعاملون بحذر مع أي وافد جديد .. وكان أكثر ما يزعجها السكون القاتل الذي يشمل الحي مساءاً حيث تنعدم الحركة .. سكون تشعر معه بعدم الأمان وهي التي اعتادت حواسها على الضوضاء والمعيشة وسط الزحام في المدن الكبيرة .. هكذا ظل الكلب بمثابة صمام الأمان لديها .. كانت توليه عناية

خاصة وتغرق مشاعرها عليه .. وشعر الكلب باهتمام سيدته بطبيعته .. ولهذا كان يتفاني في إخلاصه الغريزي لها .. يظل طوال الليل تحت نافذتها .. يزعج الجيران بنباحه المخيف حتى تطمئن سيدته وتشعر بالأمان فتنام .. ومع أقل صوت للرياح الخبيثة وهي تعبث بالأشجار، أو لكائن ليلي خرج لسوء حظه بحثاً عن طعام، كان ينبح بشكل مجنون، ويكشر عن أسنانه الحادة، ويندفع في الحديقة كأسد يحرس عرينه .. وعندما يقترب غريب من باب الفيللا .. يتربص به .. يتريث لبرهه وهو يراقبه .. ثم ينقض فجأة مزمجراً مسبباً للغريب أقصى درجات الهلع .. وكان على استعداد بالفعل ليقضي على أي متطفل دون تردد .. ولم يكن يمنعه سوى باب الفيللا الحديدي .. ولهذا لم يزعج السيدة أي غريب .. أو يقترب منها جار من الحي

واطمئن الكلب لحياته .. كان سعيداً بها .. وتمنى لو تستمر الأمور على المنوال ذاته .. ولكن الحياة بالنسبة لسيدته بدأت تتغير تدريجياً .. عرفت كيف تكتسب الكثير من المعارف على مر الأيام .. وتحولت المعارف إلى صداقات خصوصاً بعد استلامها لعمل جديد .. وبدأت أقدام غريبة بالنسبة للكلب تدب داخل البيت .. كان يزمجر في البداية ويستعد للانقضاض ولكن إشارة واحدة من سيدته كانت تجبره على التراجع خائباً .. وانشغلت عنه .. ولم تعد تقضي بصحبته وقتاً طويلاً كما كان الحال من قبل .. والأسوأ هي تلك الحفلات التي اعتادت على إقامتها بعد عودتها بعدة أشهر .. لم يكن يضايقه أكثر من رؤية كل هؤلاء الغرباء يغزون البيت الذي اعتاد أن يمرح فيه وحيداً .. يدهسون بأقدامهم الحشائش في حديقته – عرينه الخاص - التي يحفظ كل شبر منها بلا خوف منه .. ويسرقون اهتمام سيدته .. وكانت هي في البداية تعرض كلبها غريب الشكل على أصدقائها .. تفتخر به أمامهم .. وحاول البعض أن يلاطفه .. ولكنه كان يزوم بغضب مما يدفع أي شخص بعدم المخاطرة بالاقتراب منه .. لم يعتاد أن يقبل يداً تلمسه سوى يد سيدته .. وبدأ الضيوف ينزعجون منه .. اضطرت لربطه في أحد أركان الحديقة بعد أن اشتكى ضيوفها منه .. ولأول مرة داخل المنزل يلتف طوق حول عنقه وتحجز حريته سلسلة طويلة لا تسمح له سوى بالتحرك في حدود دائرة ضيقة قطرها ثلاثة أمتار .. وإن كانت تطلق سراحه بعد انصراف الضيوف

راقب الكلب تلك التغيرات بحزن، ولكنه لم يخمن أن الأسوأ لم يأت بعد .. اعتاد الغرباء مغادرة المنزل في نهاية كل حفلة فيبقى هو وسيدته فقط طوال الليل .. ولكن بعد فترة لاحظ أن أحد الغرباء بات لا يغادر المنزل .. يتجول في البيت بحرية ..

يتناول الطعام معها .. يضحكان ويخرجان برفقة بعضهما .. ومع مرور الوقت أصبح لا يرى سيدته إلا وهي برفقته

ولم يعرف الكلب ماهية الشخص الغريب الذي احتل مكانته لدى سيدته .. وتطلع بقلق لسيدته التي لم تعد تشعر بالوحدة بعد أن ارتبطت بالغريب .. وازداد تجاهلها لكلبها المدلل .. وازداد هو انطواءاً .. ومما زاد من صعوبة الأمر عليه هو ذلك الكائن الصغير الذي هبط على حياتهم فجأة دون سابق إنذار .. قط أبيض صغير يكسو الفراء الذهبي جسده .. أحضرته سيدته يوماً داخل صندوق متوسط الحجم .. وبمجرد أن فتحت الصندوق حتى قفز إلى الحديقة مصدراً مواءاً مزعجاً .. وشعر الكلب بكره غريزى تجاه المعتدي الجديد .. وتحول ما تبقى من اهتمام السيدة إلى الكائن المزعج الصغير .. أعتاد أن يراه ينام على الأرائك داخل المنزل وهي تلاطفه بينما يسهر هو في الخارج .. وفي الصباح يراقب سيدته تتناول إفطارها بينما يستقر القط على قدميها وهي تداعبه، ويتذكر يوم كانت تربت على ظهره وهو تحت أقدامها كل صباح وينتظر تلك اللحظة بلهفة لينعم بتدليل سيدته .. يؤلمه أن القط اللعين يأخذ مكانه .. تذهب للتنزه الآن بصحبة قطها الجديد بدلاً من اصطحابه .. بل أن القط تجرأ يوماً ونزل الحديقة دون سيدته .. عرينه الوحيد الذي تبقى له .. وبمجرد أن اقترب منه للانقضاض عليه حتى صاحت سيدته فيه بحدة بعد أن خرجت فجأة .. ولم تعد تطلقه في الحديقة ليلاً يعد أن خافت على قطها منه .. واعتاد القط بعدها أن يتسلل إلى مكان الكلب .. يمشي ببطء أمامه ليثير غضبه .. بل ويقضي حاجته في كل أنحاء الحديقة بعد أن أصبحت ملكه الآن وانطوى الكلب في ركن صغير منها ..

ورحل الرجل فجأة .. رآه يوماً يتشاجر مع سيدته وارتفع صياحهما .. كان على وشك ضربها عندما هرعت سيدته إليه .. حررت السلسلة وأمسكت به بقوة .. أدرك أنها تريد حمايته .. وبثبات نهض ليحول بينها وبين الرجل الذي جاء لملاحقتها .. سال الزبد من فمه وهو يزمجر بقوة مكبوتة من زمن .. وفقد الرجل شجاعته أمام هذا المنظر .. بينما وقفت سيدته بثقة وراء الكلب وهي تشعر بالأمان .. كانت أسعد لحظاته وهو يرى سيدته تعود أخيراً لحمايته .. ولم يتردد الرجل طويلاً .. أطلق ساقيه للرياح منسحباً .. وانتظر بفارغ الصبر إشارة من سيدته لينقض علي ذلك الجبان الهارب ويمزق أوصاله لكن سيدته منعته .. كانت تدرك تماماً أن كلبها عنيف وأن الأمر لن يمر بسلام إذا أطلقته .. ولم يعد للغريب وجود .. وعاد الكلب لمكانته .. وإن

بقى القط اللعين .. ولكنه لم يعد يجرؤ على النزول للحديقة .. وعادت سيدته لتدليله كالسابق

وجاء رجل آخر .. بعد فترة قصيرة من السعادة قضاها الكلب مع سيدته دون غرباء .. وصمم الغريب الجديد على نفي الكلب إلى أقصى ركن في الحديقة .. وعادت سيدته لأحضان الغريب الذي كان واضحاً كرهه للكلب من أول يوم .. حتى أنه كان لا يطعمه إلا كل يومان .. وانكمش الكلب مرة أخرى .. وبدأ يراقب ما يحدث دون فهم .. لا أحد يستطيع حماية سيدته مثله .. فلما تلجأ إلى هؤلاء الرجال .. وهذا الأخير .. أنه أثقل ظلاً من سابقه .. بإمكانه أن يثبت كفاءته بسهولة إذا تركته في مواجهة ذلك الرجل دون السلسلة التي تكبله .. يتمنى لو يحدث هذا .. بإمكانه وقتها أن يمزق أوصاله في لحظات .. ولن يعود في حاجة لرؤية تلك الضحكة الساخرة التي يقابله بها كل مرة عندما يراه .. سيسحق عظامه ويبرهن لسيدته من هو الأقوى والأجدر بحمايتها .. وتساءل لماذا لا تفضل سيدته حمايته وهو الذي لم يجرؤ يوماً أن يؤذيها كما فعل هؤلاء الغرباء من قبل .. أنه أكثر إخلاصاً منهم بلا شك .. ولن يقدم أحد منهم فروض الطاعة لها كما اعتاد هو .. فلماذا تظل تتمسك بهم إذن وتتخلى عنه

ومضت الأيام ثقيلة عليه .. وعاد يسمع صراخ سيدته مع الغريب .. ورآه يوماً يضربها .. هب على قدميه بتحفز .. وعلا نباحه .. انطلق بقوة لكن السلسلة منعته .. وسببت ألماً شديداً في عنقه وهو يحاول الخلاص منها .. وتوقع أن تلجأ إليه السيدة ولكنها لم تفعل .. وسرعان ما تصالحا .. وتكررت المشاجرات بينهما .. وبدأت السيدة تلجأ إلى قطها المدلل عندما تكون حزينة .. تمنى لو تلجأ إليه هو .. كل ما يريده فرصة واحدة فقط ليثبت لها أنه أكثر قوة وإخلاصاً من أي أحد آخر .. تمنى لو تركته فقط في مواجهة غريمه للحظات لينهي وجوده المؤلم في حياتها

وحاول الغريب الجديد التقرب من الكلب .. وبدأ يطعمه بعد أن أهملت سيدته هذا الأمر .. ولكن استمر عداء الكلب له وإن لم يعد يظهر هذا الكره تجاهه .. فما زال عليه أن يسايره حتى يحصل على طعامه بعد أن هجرته سيدته .. وزادت المشاجرات بين الغريب وسيدته .. يراه كثيراً يضربها بالقرب منه .. وكانت تتحمل هي إهاناته ويعود هو لمصالحتها كل مرة

وفي صباح أحد الأيام خرجت السيدة مع قطها لتناول إفطارها في الحديقة كالعادة .. كانت ترتدي نظارة سوداء تداري بها كدمات على وجهها .. خرج الغريب بعدها بفترة .. كان الكلب مستلقياً في ركنه بتكاسل عندما سمع صياحهما .. لم يفهم فيما يتشاجران .. ولكن كان واضحاً أن سيدته غاضبة جداً من الغريب .. وتطور الأمر بينهما سريعاً .. وصفعها الرجل على وجهها .. هب الكلب واقفاً .. ضربها مرة أخرى وتركها ممددة على الأرض .. نهضت والدماء تسيل من أنفها .. حاولت أن تعتدي على الرجل ولكنه كان أقوى منها فدفعها بعيدا .. نظرت إليه بنظرة ملؤها الغضب وأسرعت إلى كلبها .. ولأول مرة من فترة طويلة يرى سيدته تقبل نحوه .. كان يشاهد الصراع وكل عضلة في جسده تتحفز وتنتفض غضباً .. شعر أنها اللحظة التي يترقبها .. وبسرعة حررته من السلسلة تماماً وألقت بها بغضب على الأرض .. ثم اتبعتها بإشارة معينة .. إشارة تدرب عليها منذ صغره تطلق كل عدوانه .. إشارة معناها أن ينقض على العدو بلا رحمة .. أن يجهز عليه دون تردد .. ولم تحتاج أن تكرر الإشارة .. كان قد بدأ بالركض فعلاً .. وضع عينه على عدوه .. بينما ظل الرجل في مكانه ينظر إليه باستهانة .. ركض بجنون نحو الهدف .. اندفعت الدماء إلى عينيه من الغضب .. كشر عن أنيابه .. تدفق الزبد من فمه .. زمجر بقوة .. وانقض بسرعة مخيفة .. على القط الأبيض المدلل

القيمة

لم يعرف صبري يوماً قيمة زوجته .. فهو يعاملها دائماً كخادمة .. ومن أول يوم في زواجهما وهو لا يقيم لها أو لآرائها وزناً .. فقيمة زوجته بالنسبة له لا تزيد عن قيمة أي قطعة أثاث في المنزل .. وربما ورث صبري هذا عن والده .. فقد تربى وهو يرى والده يعامل أمه بتلك الصورة .. فلم يعد غريباً عليه أن يسير على خطاه عندما كبر

كان زواجه تقليدياً .. ولم يكن غريباً أن يفرض شخصيته على زوجته من أول لحظة .. فهو رجل البيت المسئول عنه والذي يتولى الإنفاق عليه .. و لم تكن هي تعارضه في أي قرار يتخذه .. ربما حاولت مرة أو أكثر من قبل .. وربما انتهت الأمور بنتائج غير جيدة بالنسبة لها ولهذا آثرت عدم المحاولة مرة أخرى .. واستسلمت تماماً لإرادته

وفي الواقع لم يكن صبري بالرجل السئ .. فهو رغم شخصيته العنيدة إلا أنه تاجر معروف بأمانته، شجاع وكريم كما يراه الناس، شهم و"ابن بلد" كما يزعم أصدقائه .. ولكن تحيزه الشديد لآرائه وعدم قبوله سواها ظل بالتأكيد يشكل أبرز عيوبه .. وظلت رؤيته للمرأة تحديداً ثابتة لا تتغير رغم تغير كل ما حوله، وموضع سخرية – وأحياناً إعجاب – لكل من عرفه .. فهو يؤكد في كل مناسبة أنها لا تصلح للاعتماد عليها، بل كان يعيب بشدة على بعض زملائه عندما يعلم عن تدخل زوجاتهم في شئون حياتهم .. ولهذا لم يحاول استشارة زوجته يوماً أو استطلاع رأيها في أي أمر .. بل كان يضربها أحياناً إذا خالفت أحد أوامره .. أو اتخذت قراراً دون الرجوع إليه

وأنجب صبري ولداً جميلاً بعد عامان من زواجه .. وكبر الولد أمامه وهو يتابعه بلهفة .. وتعلق بابنه الوحيد لدرجة أنه كان يعود أحياناً من العمل أبكر من المعتاد فقط ليقضي بعض الوقت معه .. بل ويسهر بجواره ليلاعبه رغم عودته مرهقاً من العمل .. وتعهد صبري لنفسه على أن لا يبخل بأي جهد ليراه سعيداً .. وبدأ يدلل ابنه كثيراً وإن كان يخشى أحياناً أن يفسده التدليل الزائد

وبلغ ابنه أربعة أعوام .. وبدأ ينزل للحارة ليلعب مع أقرانه .. وعاد صبري يوماً للحارة مرهقاً بعد انتهاء عمله ليتفاجئ برؤية ابنه يتشاجر مع طفلين أكبر منه حاولا سلب بعض ألعابه .. أسرع إليه على الفور، واصطحبه للمنزل وجسده يرتجف من

الانفعال .. وفي الطريق بدأ الغضب ينتابه لرؤية الدماء وهي تسيل بغزارة من أنف ابنه وتغطي وجهه بينما لمح بعض الكدمات تظهر بوضوح أعلى ذراعيه .. وعلى الرغم من غضبه أحس صبري بالفخر لشجاعة ابنه .. فابنه حسن لم يهرب من القتال على الرغم من أن الأطفال المعتدين كانوا أكبر منه سناً وحجماً .. بل وواجههم بشجاعة .. وأدهشه أنه على الرغم من الضرب الذي تلقاه والإصابات المؤلمة التي تعرض لها .. لم يبكي مثل كل الأطفال ..

والغريب أن صبري لم يتذكر أنه رأي ابنه يبكي منذ أن شب وأصبح بإمكانه أن يقف على قدميه بمفرده .. حتى عندما اصطحبه للمدرسة للمرة الأولى لم يبكي مثل كل الأطفال من حوله .. وعندما كان أحد المعلمين يعاقبه بالضرب .. لم يكن يخاف أو يرتجف مثل باقي زملائه .. بل كان يتلقى الضرب بهدوء دون أن يصيح ألماً .. هكذا أخبره صديقه ناظر المدرسة وهو يحكي له عن شجاعة ابنه التي لم ير لها مثيلاً من قبل .. وبدأت تصرفات ابنه تسترعي انتباهه .. كان يلاحظه يختلط ويلعب مع أطفال أكبر منه سناً دون خوف .. يتركه وحده بالمنزل ليخرج مع أمه لشراء بعض الاحتياجات فلا يخاف أو يبكي .. حتى الظلام لم يعد يخشاه .. فهو اعتاد أن ينام في غرفته ليلاً بمفرده بعد أن يسود الظلام المكان تماماً .. بل ويسمعه أحياناً يتوجه للحمام في منتصف الليل دون أن يوقظ أحداً لاصطحابه مثلما يفعل كل الأطفال في عمره .. ورغم حب صبري لابنه إلا أن ذلك لم يمنعه من ضربه أحياناً عندما يخطئ .. ولكن الابن لم يهرب يوماً من العقاب أو يبكي عندما يتلقاه .. ولهذا زاد من تعلقه بابنه، ودهشة من سلوكياته

ووقعت حادثة ذات يوم عندما جلب أحد الجيران كلباً كبيراً لحراسة منزله .. كان أطفال الحي يخافون من الاقتراب منه .. يقذفونه أحياناً بالحجارة ثم يركضون بعيداً ولم يكن يمنع الكلب سوى السلسلة الكبيرة التي التفت حول عنقه بإحكام وربطت في سور الحديقة .. وذات يوم بينما حسن في طريق عودته من المدرسة إذا بأحد زملائه يقذف الكلب بحجر كبير .. وهاج الكلب فوراً .. ولسوء حظه كان بالقرب من الكلب وقتها الذي انتهز الفرصة وعقره .. و لأنه كلب ضخم غاصت أنيابه في ذراع حسن .. وصرخ حسن من الألم ولكنه قاوم الكلب بشدة حتى اضطره للتراجع .. وتم نقله للمستشفي بسرعة .. وأسرع صبري إلى هناك فور أن علم بالخبر .. وفي المستشفي لم يبكي حسن على الرغم من أصابع الطبيب وهي تطهر الجرح العميق وتزيده ألماً

وإن اكتسى وجهه بلون قاتم من الألم .. وترقرقت الدموع في عيني أمه وهي ترى قسوة المنظر بينما وقف الأب عاجزاً يتمنى لو بإمكانه أن يحل محله لمنع الألم عنه

وداوم صبري على اصطحاب ابنه للطبيب مضطراً ليحقنه بشكل يومي ولمدة ثلاث أسابيع متواصلة بعد أن عقره الكلب .. يحمله إلى هناك حانقاً فهو يعلم كم تسبب تلك الحقن من ألم .. تذكر أنه هو نفسه مر بتجربة مماثلة من قبل عندما عقره كلب ضال في قريته وكان وقتها في سن أكبر من سن ابنه .. لا ينسى كيف كانت تؤلمه وخز الحقن وتدفعه للبكاء أحياناً .. ولكن ابنه لم يبكي أو يخاف وهو ما أثار استغراب الطبيب الذي كان يمنح حسن قطع من الحلوى أحياناً مكافأة على قوة تحمله

وأنجب صبري ولداً آخر فانشغل به قليلاً عن حسن .. وأتم حسن ثمان سنوات .. وبدأ يظهر تفوقاً واضحاً في الدراسة .. وتساءل صبري من الذي يساعده رغم أنه مشغول دائماً في العمل .. وظل يدهشه بتصرفاته رغم صغر سنه .. فهو لا يشتكي أبداً .. ويواجه كل موقف بجرأة بلا خوف .. بل أنه يذهب للمتجر أحياناً مع أبيه ليساعده في العمل .. وبدأ يتولى شراء كل متطلبات البيت بمهارة يحسد عليها .. فلم تفلح بائعة يوماً أو بائع في غشه .. ولهذا حرص صبري على أن يقرب ابنه إليه ويعامله بحب أكبر .. وأصبح مدعاة فخره أمام الناس .. خاصة عندما توجه لزيارة أقارب لهم في الصعيد واصطحب حسن معه .. وهناك أعجب الجميع به وأثنوا على سلوكياته .. وأشادوا بصبري أكثر لأنه غرس في ابنه كل تلك الصفات الجيدة .. وتساءل صبري للمرة الثانية كيف اكتسب ابنه كل تلك الصفات من صغره دون أن يعلمه أحد .. ولم يجد إجابة لسؤاله سوى أنه ورثها منه بالتأكيد

وعاد صبري يوماً من عمله في المساء بعد يوم شاق خسر فيه مبلغ كبير من المال أثر صفقة عقدها .. بدا له المنزل أمام عينيه مختلفاً .. لاحظ أن زوجته نقلت بعض قطع الأثاث وأعادت ترتيب المنزل أثناء غيابه .. ورغم أن المنزل بدا بصورة أفضل .. إلا أنه اغتاظ من زوجته التي لم تحصل على إذنه قبل القيام بالأمر .. وعندما هرعت إليه لاستقباله كان ثائر الأعصاب بشدة .. تشاجر معها .. وعلا صوته .. ولم تتكلم هي .. اعتادت أن تتحمل إهاناته بصبر .. وبدأ يفقد أعصابه أكثر عندما لم يجد رداً منها .. وفي غمرة انفعاله .. هوى على وجهها بصفعة قوية

لم يدرك أن ابنه النائم قد استيقظ على صراخه العالي .. وأن الولد خرج من غرفته لاستطلاع الأمر .. ورأي ما حدث .. وقبل أن يهوي صبري بالضرب على زوجته للمرة الثانية اندفع الطفل بلا وعي ليقف أمام أمه ويحول بينهما .. كان يقف أمام أمه تماماً فاتحاً ذراعيه وكأنه يذود عنها .. وذهل صبري للحظات وهو يرى طفله يواجهه ويحمي أمه .. وهدأت ثورته العارمة قليلاً .. كانت الدماء قد بدأت تنزف من أنفها .. تطلع الطفل للدماء وللكدمات التي علت وجه أمه .. ثم رفع رأسه نحو أبيه بسرعة .. ورأي صبري ما لم يكن يتوقعه .. نظرات صادمة يوجهها الطفل لأبيه رغم براءة سنه .. نظرات تحمل كل معنى الغضب .. بينما ولأول مرة في حياته .. يرى شيئاً ينساب عبر عيون ابنه لم يستطع أن يمنعه .. شيئاً لم يره من فترة طويلة ولم يظن أن يراه .. دموعاً ساخنة يسكبها الطفل بصمت .. آلمه أن يراها لأول مرة تنساب بغزارة منه وهو يلتصق بشكل أكبر بوالدته بينما الألم يعتصر وجهه البرئ .. تطلع لجسده الصغير الذي يرتجف بقوة في خوف حقيقي .. وللمرة الأولى أيضاً يرى صبري ابنه خائفاً .. بل وبشدة .. ولدهشته .. لم يكن خائفاً منه، بل خائفاً على أمه

تسمر صبري في مكانه مذهولاً للحظات يعجز عن التصرف .. ضمت الأم ابنها إليها بحنان فاستسلم في أحضانها.. مسحت الدماء التي سالت من وجهها بصمت ..أغمض الطفل عينيه وهدأ قليلاً في أحضان أمه وقد بدأ جسده يتوقف عن الارتجاف تدريجياً .. ورغم الألم الذي تمر به ربتت على كتف ابنها بحنان وهي تواصل احتضانه بيد .. وتمسح دموعه باليد الأخرى .. تراجع صبري قليلاً .. تطلع لزوجته دون كلام .. أدرك صبري لحظتها فقط من أين اكتسب ابنه شجاعته .. ومن أين استمد كل الصفات التي يفخر بها .. تلك الصفات التي ظن يوماً واهماً أنه اكتسبها منه .. تراجع خطوة وهو يواصل النظر إليها مذهولاً بلا كلام .. لم يدرك سوى وقتها فقط من القدوة التي تعلم منها ابنه حقاً الصبر وتحمل الألم .. ومن السبب وراء تفوقه في الدراسة وتميزه خارجها .. والمصدر الذي استمد منه جرأته وثقته بنفسه .. أحس بالألم وهو يرى نفسه يزرع في ابنه معنى الخوف الذي لم يعرفه من قبل .. بينما اجتهدت أمه كل تلك السنوات لتنزع من داخله كل المعاني السلبية وتزرع فيه معاني أخرى جميلة يهدمها هو فيه بسهوله تامة الآن .. أطال النظر في وجهها وكأنه يراها للمرة الأولى بينما انسحبت هي تجاه غرفتها ببطء .. ولأول مرة يستشعر صبري حقاً قيمة زوجته .. و .. لأول مرة أيضاً يعرف الندم على بعض تصرفاته معها طوال كل السنوات الماضية .. و ..

ولم يعد صبري يضرب زوجته .. أو يستهزأ بها

ولكنه ما زال متمسكاً بآرائه بخصوص المرأة بعناد تام .. على الأقل أمام الناس .. وإن لم يعد يتطرق إليها كثيراً أو يدافع عنها بحماس كبير كالسابق

أزمة

كنت في عيادتي أستعد لاستقبال آخر حالة .. طرق المساعد على الباب استئذاناً قبل أن يفسح الطريق للمريض .. رفعت بصري عن بعض الأوراق التي كنت أطالعها وتطلعت للقادم .. شاب في بداية الثلاثينيات رياضي القوام يمشى بخطوات سريعة ويبتسم بهدوء وإن كان يبدو عليه بعض القلق .. بالرغم من ثباته الظاهري إلا أني لاحظت توتره من خلال خطواته المترددة ونظراته الزائغة التي مسحت المكان فور دخوله .. نهضت لمصافحته والترحيب به .. جلس على مقعد مقابل مكتبي .. تشاغلت بكتابة بعض الملاحظات لأفسح له المجال ليهدأ قليلاً وتألف نفسه جو العيادة .. تبادلت معه بعض عبارات الترحيب التقليدية فاستجاب لها بكلمات سريعة مقتضبة .. تراجعت في مقعدي ثم وجهت له سؤالي الأول الذي أعلم مسبقاً إجابته

- هل تلك أول مرة تراجع فيها طبيب نفسي؟

هز رأسه بالإيجاب .. تناولت سريعا دفتر ملاحظاتى لأدون ما سيدور في الجلسة ولم أفضل استخدام المسجل حتى لا أزيد قلقه الظاهر للعيان .. سألته عن اسمه فلم أتلقى إجابة منه في البداية .. رفعت عيني ونظرت إليه فأطرق إلى الأرض .. ثم رفع رأسه قائلاً بحزم:

- هل يمكن التجاوز عن مسألة الاسم .. لا أحب أن أكذب عليك .. وسأجيب بصراحة عن أي سؤال آخر .. بعيداً عن هويتي

هززت رأسى متفهمة .. ليست أول حالة يمتنع فيها المريض عن ذكر بياناته الشخصية .. طريقة يلجأ إليها البعض ليشعر براحة أكبر قبل الانطلاق في الكلام .. كثير من المرضى بعد عدة جلسات على أي حال يكشفون عن هويتهم من تلقاء أنفسهم بعد أن تبنى جسور الثقة بينهم وبين الطبيب بشكل جيد .. تغاضيت عن مسألة الاسم إذن .. سألته عن المشكلة التي يعاني منها، أو السبب الذي دفعه لمراجعة الطبيب .. شرد ببصره قليلاً في سقف الغرفة، ثم بدأ يحكي بثبات

علمت منه أنه تعرض لحادث عنيف من بضعة أشهر .. حادث قوى أثر بالسلب على أعصابه وترك آثاراً لا تمحى داخله لم يستطع التعافي منها .. قبلها لم يكن يشكو من أي شئ غير معتاد .. شاب عادي ناجح في عمله .. اجتماعى وله علاقات متعددة،

ويتطلع للحياة بتفاءل دوما .. الآن بات يثور بسرعة .. ينزعج من الأصوات العالية .. يتجنب الناس ويفضل العزلة بعيداً عنهم .. والمشكلة الأكبر التي طفت على السطح فجأة وكانت السبب الأهم الذي دفعه لاستشارة طبيب، هي تلك النوبات العصبية اللعينة التي بدأت تهاجمه دون رحمة في الفترة الأخيرة ..

اعتدلت في مقعدى باهتمام .. سألته عن نوع النوبات .. أخبرني أنها نوبات متكررة بفقد فيها السيطرة على نفسه .. بمجرد أن يتعرض لموقف أو مثير يذكره بالحادث حتى يصاب بتلك الحالة .. يحس بخدر في أطرافه وعدم قدرة على الحركة .. يشعر بدوار شديد وتخفت الأصوات من حوله تدريجياً .. يصيب جسده شلل مؤقت ويغيب في عالم آخر رغم أنه لا يفقد وعيه .. يضيق صدره كما لو أن شيئاً ثقيلاً يجثم فوقه فجأة .. تستمر تلك الحالة لفترة من الوقت ثم يبدأ جسده في الاسترخاء تدريجياً بعدها ويعود لحالته الطبيعية ولكن مرهقاً تماماً .. المشكلة أن النوبات كانت تنتابه على فترات متباعدة ولكنها زادت في الفترة الأخيرة حتى أنها هاجمته مرتان أثناء العمل وهو ما لا يريده أن يتكرر .. عمله حساس لا يقبل الخطأ وأقل هفوة فيه قد تقضى على مستقبله .. في المرتين أنقذه مساعده وأخفي الأمر ببراعة .. ولكنه يعمل الآن مع مساعد أقل خبرة وبراعة وربما يتسبب الأمر بكارثة

لم أسأله بالطبع عن طبيعة عمله الحساس لأني أدرك مقدماً أنه سيخفي ذلك .. أنهيت الجلسة عند هذا الحد بعد أن رأيت أن حالته لا تسمح بمزيد من الكلام .. وصفت له بعض الأدوية المهدئة وطلبت منه تحديد جلسة ثانية .. انطباعى الأول الذي خرجت به أنه مصاب بأزمة فزع تنتابه عندما يتعرض لمثير قوي يذكره بالحادثة .. لم يعالج جيدا من اضطراب كرب ما بعد الصدمة الذي أصابه بعد الحادث، ربما يعتبر نفسه مسئولاً عن تلك المأساة بصورة أو باخرى، ولم يتخلص بعد من عقدة الذنب حيالها .. على العموم ستوضح الجلسات اللاحقة كل تلك الأمور بشكل أفضل

في الجلسة التالية فتح قلبه بصورة أكبر وتتكلم عن الحادثة، سبب الأزمة التي يمر بها .. أطلعني على كافة ملابساتها بالتفصيل .. علمت أنه كان في طريقه لقضاء أمسية لطيفة مع عدد من أصدقائه في أحد الاستراحات على الطريق السريع .. لم يكن في حالته الطبيعية بعد أن دخن كثيراً، بالإضافة إلى أنه لم ينم جيداً في الليلة التي سبقتها .. أختل توازن السيارة وهو ينطلق بسرعة عالية اعتادها مع أصدقائه فانقلبت السيارة عدة مرات وحادت عن الطريق ولم يوقفها سوى رمال الصحراء التي خففت زحف

السيارة على الأرض .. مات أحد أصدقائه على الفور وأصيب الآخرين بإصابات متنوعة ولكن الغريب أن إصابته لم تكن جسيمة .. كيس الهواء المصمم لحماية السائق في سيارته الحديثة بالإضافة إلى حرصه على ارتداء حزام الأمان دائماً أنقذ حياته .. عند الانتهاء من كلامه كان العرق الغزير يغطي جبهته رغم برودة الجو .. لاحظت أنه يتنفس بصعوبة ويطبق بيده على مسند الكرسي بقوة .. أدركت أن حالته لا تسمح بموصلة الجلسة فأنهيتها للتو .. طلبت منه إجراء عدة تحاليل طبية تمهيداً لوصف بعض الأدوية المهدئة له قوية المفعول .. وحتى أتأكد أن أزمة الفزع التي يمر بها ليس لها سبب عضوي ناجم عن الحادثة

في لقائنا التالى أحضر معه نتائج التحليل التي جاءت سلبية .. واصل كلامه ولكن تلك المرة عن عمله .. لم أخرج بصورة واضحة عن طبيعته ولكني عرفت أنه عمل حساس يوفر له مكانة اجتماعية مرموقة .. ودخلاً محترماً يجعله يخشي أن يفقده بسبب تلك النوبات .. كما أنه يحب عمله وتميز فيه رغم صغر سنه .. تكلم قليلاً عن علاقاته النسائية وبعض الأمور الأخرى الثانوية التي لا تفيدني في تشخيص حالته ولكني استمعت له بسعة صدر .. في نهاية الجلسة وصف أعراض أخرى تنتابه .. أبلغنى أنه يعاني قليلاً من اضطرابات في النوم .. صعوبات في التركيز والتذكر .. إحساس عام بالتعب والإجهاد لأقل مجهود يبذله .. أخبرنى بخجل بفقدانه الرغبة في النساء وهو الذي اشتهر بعلاقاته المتعددة .. كنت أعلم أنه يمر بطور خفيف من الاكتئاب وتأكدت الآن من ظنوني من الأعراض المتنوعة التي ذكرها .. كتبت له مجموعة من الأدوية وطلبت منه تناولها بحذر .. مجرد مجموعة من الأدوية المهدئة وبعض مضادات الاكتئاب المفيدة في حالته .. نصحته أيضاً بأن يحصل على أجازة ولكنه رفض الفكرة فور طرحها خاصة أنه سبق له الحصول على أجازة طويلة عند تعرضه للحادث ويخشى أن يثير الشكوك حوله بطلب أجازة ثانية سريعة لا يستطيع الإفصاح عن مبرراتها

في الجلسة التالية كان أشد تماسكاً وأكثر هدوءاً .. وضح التأثير المؤقت للأدوية عليه .. تكلم بإسهاب عن صديقه المقرب الذي لقى حتفه في حادثة السيارة .. وعن علاقة الصداقة الطويلة التي جمعت بينهما .. قص علي كثير من نوادر علاقتهما .. ثم سكت طويلاً .. أدركت وقتها أنه يعاني من إحساس بالذنب لم يتخلص منه ويمنعه من مواصلة الكلام .. كنت أرغب أن يتكلم أكثر ليتخلص من انفعالاته المكبوتة ولكنه

واصل الصمت .. لم أشأ أن أضغط عليه .. بعد فترة عاد للتحدث مرة أخرى عن عمله وفخره بالمكانة التي وصل إليها رغم صغر سنه .. والأهم ، تحدث عن خوفه من أن تنتشر أخبار مرضه لتصل إلى رؤسائه .. حاولت طمأنته بأن علاقة المريض بالطبيب النفسي لا يسمح لأحد بالإطلاع عليها، ولكن ظلت نظرات القلق واضحة في عينيه ..

في جلستنا اللاحقة خرج الأمر قليلاً عن المألوف .. جاء ثائر الأعصاب بشدة ومتوتراً بدرجة كبيرة .. لم أره في تلك الحالة من قبل .. استغرق الأمر وقتاً طويلا ليهدأ ويشرح لي سبب توتره .. أحد زملائه ممن يقطنون في منطقة قريبة شاهده مصادفة وهو يتوجه نحو العمارة التي تشغل العيادة أحد وحداتها .. اضطر لأن يكذب عليه و يخبره أنه جاء لزيارة صديق يسكن في نفس البناية .. لم يبدو على زميله الاقتناع بكلامه حتى أنه سأله عن اسم الصديق الذي يزروه فهو يعرف معظم قاطني البناية ولكنه تهرب منه .. المشكلة أن البناية لا توجد بها سوى عيادة واحدة ولو كان بها عيادات أخرى لأدعى الذهاب إلى أي منها بسبب ألم جسدي طارئ يعاني منه .. حاولت أن أوضح له أن العلاج النفسي ليس بالأمر الذي يخجل منه حتى أن كثير من رؤساء العالم والمشاهير خضعوا له واعترفوا بتلقائية بتلقيهم للعلاج النفسي وهم أكثر حاجة من أي شخص للحفاظ على صورتهم المثالية لدى الناس .. ولكنه لم يبدو مقتنعاً بكلامى .. لم أفلح في تهدئته حتى أنه لم يستكمل الجلسة وأنهاها سريعاً فنصحته فقط بالمواظبة على تناول الأدوية

في موعدنا التالي لم يحضر .. و لم يظهر في الأسابيع القليلة التي تلتها .. كما أنه لم يتصل ليعتذر .. أدركت أن خوفه على سمعته دفعه للتهرب من العلاج .. أو ربما فضل العلاج عند طبيب آخر تشغل عيادته مكاناً نائيا أو لا يثير الشبهة عند التردد عليه مما يقلل من فرص انكشاف أمره .. تمنيت حقاً أن يستكمل علاجه فحالته تحتاج لكثير من المتابعة والاهتمام .. والأدوية التي كتبتها له لن تعالج المرض ولكنها فقط تخفف شدته وتقلل من أعراضه التي ستعاود الظهور بقوة بمجرد التوقف عنها .. وخشيت أن يعتمد عليها فقط ويهمل العلاج السلوكي والنفسى وهو الأهم .. بعد فترة بدأت أنسى الأمر أو أتناساه .. واصلت التركيز مع حالاتي وانشغلت بالعمل

بعد مرور فترة وجيزة تلقيت دعوة للسفر للخارج لحضور مؤتمر علمي .. فرصة جيدة لتبادل الخبرات والإطلاع على آخر التطورات في مجال تخصصي .. قضيت

وقتاً طويلاً قبل السفر لإعداد بحث ألقيه في المؤتمر .. في يوم السفر توجهت للمطار فجراً للحاق بموعد الطائرة .. أنهيت إجراءات سفري وصعدت على متنها .. جاء مقعدي بجوار نافذة فألقيت نظرة إلى الخارج وانشغلت برؤية المطر الذي بدأ ينهمر .. أقلعت الطائرة أخيراً بعد تأخر طفيف .. دائماً أخاف من ركوب الطائرات ولكني أنجح في التغلب على هذا الخوف بطرق عديدة درستها .. بعد فترة قررت أن أراجع بحثي .. ارتديت نظارتي وبدأت في مراجعة الأوراق بتركيز .. شعرت بعيني تؤلمني فتوقفت عن القراءة وتطلعت من النافذة إلى المحيط الواسع من تحتنا وقد بدأنا نحلق فوقه في تلك اللحظة .. شردت بخيالي قبل أن يقاطعني صوت هرولة بعض المضيفات .. علمت أن أحد المسافرين انتباته غيبوبة سكر .. كنت أدرك بحكم كثرة سفرياتي أن الطائرة مزودة بحقن الأنسولين تحسباً لتلك الحالات الطارئة فلم يساورنى القلق مثل باقي الركاب على حياة المريض وإن كان الأمر يستدعى حضور الطيار .. فربما تتطلب الحالة هبوط الطائرة في أقرب مطار أو العودة لإسعاف المصاب فوراً .. بعد دقائق هدأت الأمور ووضح أن الحالة تم السيطرة عليها .. استرخيت قليلاً ثم عاودت القراءة وانشغلت تماماً في أوراق البحث قبل أن يتناهى فجأة إلى سمعي صوت مميز .. صوت مألوف لم أتعرف عليه في الحال .. رفعت عيني عن الأوراق وتطلعت للأمام .. هناك كان يقف رجل في منتصف الممر يرحب بلهجة لطيفة بركاب الطائرة ويطمئنهم بنفسه على صحة المسافر المصاب .. بمجردت أن وقعت عيني عليه حتى تعرفت عليه فوراً .. ويبدو أنه تعرف علي أيضاً لأني لاحظت ارتعاشة خفيفة في يديه .. واصل كلامه لثوان ولكن تهدج صوته قليلاً .. مع مواصلة حديثه لاحظت أنه بدأ يتنفس بصعوبة وقطرات من العرق تعرف طريقها إلى جبهته .. ثم استند قليلا على مسند أحد الكراسي بعد أن كان يقف بثبات .. أغمضت عيني في إحباط .. لم يكن من المناسب أن يراني .. أو تقع عينه علي أبداً

كان هو بلا شك .. مريضي السابق .. المريض الذي هرب دون أن يكمل علاجه .. يقف أمامي متماسكاً بصعوبة الآن مرتدياً زي الطيار وهو يحاول طمأنة المسافرين .. تبدو عليه بوادر الأزمة بعد أن رآني .. مثير قوي يذكره بالحادثة .. لم يكن في استطاعتي إيقاف النوبة التي أرى بوضوح بداية أعراضها تجتاحه .. هززت رأسي في أسى .. بلا وعي التفت بنظري بعيدا عنه تجاه النافذة .. حيث تراءي أمام عيني على الفور اللون الأزرق المميز للمحيط الشاسع الذي تحلق الطائرة فوقه

المغناطيس

كنا زميلين في العمل .. ولكن العلاقة بيننا عابرة، وظلت كذلك لفترة طويلة .. لا أعلم كيف انجذبت إليها .. ربما بسبب نظراتها الغامضة .. ابتسامتها الشاحبة .. مرحها الدائم الذي كان يبدو لي، على عكس الجميع، قناع يخفي وراءه حزن عميق .. كل ذلك دفعني لأن أقترب منها .. تتمتع بشخصية جذابة حقاً وخفة ظل بلا تكلف، دائمة الابتسام، تستطيع أن تنجز أي عمل صعب بابتسامتها السحرية .. تلقائية دوماً ومرحها من النوع المحبب للنفس دون ابتذال أو تجاوز .. ولهذا لم يكن غريباً أن تحظى بشعبية بيننا في العمل لا تضاهى .. ولكن ظل هناك شئ لم يلحظه كل من حولها .. تلك اللحظات الخاصة التي تجلس فيها بمفردها فتختفي شخصيتها المرحة عندما تتأكد أن لا أحد يراقبها .. يغمر حزن واضح وجهها الفاتن .. يطل من عينيها أسى عميق .. لحظات وسرعان ما تتدارك نفسها .. تعود إلى طبيعتها أو تحاول ذلك .. ربما كل ذلك دفعني لأبحث عن فرصة لمعرفتها أكثر .. وربما لسبب آخر .. هو أنني كنت سراً أحد المعجبين بها

وفي يوم واتتني الفرصة التي طالما ترقبتها .. أعلنت أحدى الزميلات عن رحلة تعتزم المؤسسة القيام بها .. وتحمست عندما رأيتها تشترك بها تحت إلحاح البعض .. سارعت بالاشتراك أيضاً لعلي أحظى بفرصة أكبر للتعرف عليها .. وفي موعد الرحلة حرصت على الذهاب مبكراً .. مر الوقت ونحن ننتظر داخل الحافلة ولكنها تأخرت .. بدأ القلق يتسرب إلي .. مرت الدقائق سريعاً ليعلن السائق أنه لا بد من الانطلاق .. بدأنا التحرك بالفعل بينما غبت في عالم آخر .. وفجأة صاح أحدهم لتنبه السائق .. التفتنا إلى حيث يشير حيث لمحنا زميلتنا تأتي من بعيد مهرولة تحاول اللحاق بنا .. توقف السائق تدريجيا .. وسرعان ما لحقت بالحافلة وهي تلهث وقد ردت إلي روحي .. كانت تضحك وتعتذر للكل .. دارت بعينها في المكان ولكن لم يكن هناك سوى مقعد فارغ فقط بجواري .. ودون تردد وجدتها تستأذن في الجلوس بجانبي

لم أصدق نفسي .. كان ذلك أكثر مما كنت أتمناه .. وسرعان ما تنحيت جانياً .. وتبادلت معها الحديث طوال الرحلة .. واندمجت معها في الكلام وقد نسيت كل ما حولي .. ورغم قصر مدة الذهاب .. إلا أنها كانت لحظات لا تنسى .. وعندما بلغنا

الهرم – أول مكان في رحلتنا – قلت لها ونحن نغادر: "أنت أذكى إنسانة قابلتها في حياتي" .. ولم تكن مجاملة .. وعلى غير المتوقع شحب وجهها قليلاً .. وردت بابتسامة باهتة: " صدقني .. العكس هو الصحيح تماماً".. اندهشت ولم أعقب

لم أستطع أن ألتقى معها باقي الرحلة .. كانت تنتقل من مجموعة لأخرى كالفراشة .. تثير المرح في كل مكان تذهب إليه .. ومر وقت الرحلة سريعاً .. وأنتهى بنا الأمر إلى باخرة سياحية في النيل قبل الغروب .. كان أخر مكان في رحلتنا .. وجاءت في وقت مناسب بعد يوم من الحركة والنشاط حيث حل الإرهاق بالجميع فكانت فرصة للاسترخاء قليلاً وسط النيل والغروب .. وبمجرد أن صعدنا على سطح الباخرة حتى درت بعيني في المكان أبحث عنها .. ولكن منظر غروب الشمس جذبني .. أسندت يدي إلى السياج وتطلعت إلى قرص الشمس الأحمر وهو يحتضن النيل .. وعندما أفقت وجدتها بجانبي .. ازداد خفقان قلبي .. قلت لها: "منظر جميل" .. مدت يدها إلى وجهها .. يبدو لتمسح دمعة لم أتبينها جيداً في الظلام .. أشارت إلى مجموعة من زملائنا يفترشون سطح الباخرة في دائرة .. قالت بسرعة: "دعنا نجلس معهم" .. انضمت سريعاً للمجموعة وجلست مقابلها .. بدا الجميع في حالة استرخاء .. و فجأة طرح أحدهم سؤالاً عابراً عن أغرب شئ سمعوه في حياتهم .. تحمس البعض للإجابة .. وبدأ كل واحد يحكي عن أغرب قصة عايشها أو رآها .. كانت بعض القصص طريفة، والبعض الآخر غريب حقاً .. وقد حرصت هي ومجموعة من الزملاء على عدم المشاركة واكتفت بتعليقات قصيرة عقب كل قصة .. لاحظت أنها لم تبدي دهشة على أي قصة سمعتها على عكس الآخرين .. ويبدو أن البعض لاحظ ذلك أيضاً مما دفع أحدهم لسؤالها بفضول: "ألم تثيرك أي قصة منهم؟" .. قالت بهدوء: "كلها جميلة ولكنها ليست الأغرب" .. ساد السكون بيننا للحظات .. كان قرص الشمس قد اختفى ولم يتبقى سوء ضوء خافت .. لم أستطع أن أتبين ملامح وجهها جيداً .. وفجأة طرحت عليها أحد الزميلات: "لما لا تحكي لنا أغرب قصة مرت بك في حياتك" .. ولم ترد .. وتحمس البعض للاقتراح وبدأوا يلحون عليها .. كانت تتمنع وتعتذر ولكنهم استمروا بالضغط عليها .. سكتت قليلاً .. ابتسمت في استسلام ثم قالت: "حسناً .. سأحكي لكم عن قصة أغبى امرأة قابلتها في حياتي، وهي قصة حقيقية لا أحب أن أحكيها كثيراً" . سكتت وهي تتطلع إلينا، تنفست بعمق .. سرحت قليلاً .. ثم بدأت تحكي بصوت هادئ لا يخلو من نبرة حزن:

كانت زوجة جميلة تحب زوجها بجنون، ويبادلها العشق بجنون أكبر .. يشتاق إليها وهي إلى جواره .. تحصي الدقائق وكسور اللحظات لموعد عودته إن تغيب عنها .. اندمجا فلم يعد يشعر أي منهما أنه كامل إلا بوجود صاحبه .. كانت لا تتصور حياتها بدونه .. وكان يشعر أنه يفارق روحه عندما يغادرها .. وحلقا معا في سماء بعيداً عن أرض قد لا تتسع لعشقهما

سكتت قليلاً .. اقتربت أكثر فيما تطلعت إليها العيون بلهفة وهي تكمل:

في يوم عاد الزوج لمنزله وبيده خطاب .. قبل زوجته بحب كالعادة .. سألته بلهفة عما بيده فأخبرها وهو يكاد يطير فرحاً أنه من أخيه يوسف، المهاجر في الخارج من مدة طويلة .. شقيقه الوحيد الذي لم تره من قبل، وإن حكى لها كثيرا من قبل عنه .. سافر إلى الخارج لينهي دراسته الجامعية .. جذبته الحياة فاستقر لعدة سنوات هناك بعد تخرجه عمل خلالها كمهندس في أحد الشركات الكبرى .. علمت أنه سيصل أخيراً بعد يومان .. شاركته فرحته بالطبع .. بعد برهة ظهر بعض القلق على وجهه .. التفت إليها قائلاً بتردد: " تعلمين أن يوسف لا أحد له في الدنيا سواي بعد وفاة والدتنا .. وأرغب أن يمكث معنا هنا .. لفترة قصيرة فقط حتى يستقر".. كادت أن تعترض ولكنها أمام توسله لم تستطع إلا أن توافق .. وإن كان هناك شئ بداخلها أقلقها من الأمر .. وفي الليل لم يطاوعها النوم .. لأول مرة يراودها شعورغريب بعدم الطمأنينة لا تدري مصدره .. في اليوم المحدد أعدت المنزل ليكون لائقاً باستقبال الزائر الجديد .. لم تدخر أي جهد ليبدو المكان في أبهى صورة .. بينما توجه زوجها للمطار لاستقبال أخيه .. ما أن عاد وسمعت طرقته المميزة على الباب حتى أسرعت لاستقباله .. رحبت بضيفها بحرارة .. وتطلعت إليه بفضول .. وللوهلة الأولى داهمها شعور بعدم الارتياح تجاهه .. كان وسيماً حقاً كما كان يحكي زوجها ولكنه بدا غريباً في مظهره وتصرفاته .. ذلك الشعر الطويل المموج .. الملابس الضيقة .. السلسلة التي تتدلى من رقبته .. تلك النظرة المغرورة التي ترتسم على وجهه .. نبات غريب لم تعد تربطه جذور بالحياة هنا .. وسرعان ما أدركت أنها لن تتفق معه .. وأنها أمام شخص ينتمي إلى عالم آخر لم تألفه .. وعندما سألته بترحاب عن صحته .. أجابها بلكنة أجنبية لم تفهمها في البداية فأكد ظنونها .. دعاه أخاه بسرعة لمشاهدة المنزل .. تفحص ديكورات البيت بلا مبالاة قبل أن يعلق ببساطة: "ليست سيئة .. ذوق قديم ولكن مع بعض التحسينات ستصبح أفضل" . أدهشها كلامه وضايقها أن يصف أحد

منزلها الذي تحرص عليه كل الحرص بسلبية شديدة، وينتقد ذوقها علانية وبوقاحة تامة .. ولكن ما أدهشها حقاً هو رد زوجها عليه: "سنقوم بأي تغييرات تراها ضرورية بالطبع" . لم تستطع أن تعلق، كتمت غيظها واتجهت لإعداد الطعام

لم يجلس زوجها بجوارها على المائدة كالعادة .. جلس بجوار أخيه .. سألته عن رأيه في الطعام، رد بلا اكتراث: "ملئ بالدهون .. أكل غير صحي بالمرة كما أني لاحظت أنك أكثرت من الملح على الطعام" . أدهشها أنه لم يحاول حتى أن يجاملها .. لم تبدي امتعاضها .. يبدو أنه يفتقد بالفعل أبسط قواعد الذوق .. التفتت لزوجها قائلة بهدوء: "ولكن أخيك هو من يطلب ويهوى الطعام على هذا النحو" .. تطلعت لزوجها الذي تلعثم قليلاً قبل أن يرد: "حسناً .. يمكننا أن نقلل الملح فيما بعد .. ذلك صحياً يبدو أفضل" . كانت تشعر من الوهلة الأولى أن زوجها يحاول أن يرضي أخيه بأي وسيلة .. ولكن ليس لتلك الدرجة

في المساء .. لم يجلس معها كعادته .. كانا يعتادان الخروج لقضاء سهرة لطيفة .. أو السهر في البيت .. يتناجيان .. يتهامسان .. يضحكان .. ولكنه ظل طوال الوقت مع أخيه .. يسأله عن كل شئ مر به في الخارج .. وبدأت ترى بوضوح نظرات الإعجاب تطل من عيني زوجها لكل شئ يسمعه من أخيه .. تراه مبهوراً بما يحكيه عن حياته هناك .. عن حريته وجرأته .. عن تجاربه ومغامراته .. ضايقها الأمر .. وعندما غادرتهما لترد على مكالمة أحدى صديقاتها . عادت لتتفاجئ بهما يتكلمان عنها .. سمعته يقول لزوجها: "أنها جميلة حقاً ولكن .." .. سكت بمجرد دخولها .. ودت لو تعرف ما كان سيقول عنها لو لم تقاطعهم، خاصة أن كلمة لكن تحمل بعدها دوماً نقداً، على الأقل أرضى غرورها قليلاً أن يصفها بأنها جميلة

ومر يومان .. لم يختلفا عن سابقهما .. استمر زوجها بالالتصاق بأخيه الذي يهوى القيام بأشياءغريبة لم تعتادها وكأنه يستفزها .. بدأ يزعجها حقاً بتصرفاته .. تلك الأغاني الصاخبة التي يهوى أن يسمعها بصوت عال .. تدخينه بشراهه .. الأريكة التي يجلس عليها ممدداً وهو يتناول الطعام .. السهر حتى الصباح .. حديثه المتواصل الذي لا يخلو من كلمات أجنبية لا تفهمها .. ولكن ما ضايقها حقاً .. محاولته لتغيير ديكور المنزل حتى يتلائم مع ذوقه .. وبالطبع رفضت ذلك .. واتخذ زوجها موقفاً سلبياً .. وشعرت أنها وحيدة في منزلها .. حتى الخادمة تطهو له الطعام الذي يحبه .. أو يشترى الطعام جاهزاً .. لم يعد زوجها يتلهف للطعام الذي تطهوه كما اعتاد ..

حاولت أن تسترجع زوجها ولكنه كان يذكرها دائماً: "لا تنسي أنه أخي الوحيد .. وضيفنا .. يجب أن نرضيه بقدر الإمكان طوال الفترة المحدودة التي سيقضيها معنا" . وتحولت حياتها إلى فوضى .. تحملت .. وكبتت ثورتها .. طالت اليومين لتصبح ثلاثاً .. ثم أسبوعاً فاثنان .. وكانت على وشك الانفجار بالفعل .. بادرته في أحد المرات سائلة بلطف مصطنع وبشكل مباشر: "هل تنوي الاستقرار معنا؟" أجابها ببساطة: "تعلمين أني أبحث عن عروس تشاركني حياتي .. وقد ابتعت بالفعل شقة في مكان متميز مؤخراً وأنوي أن أستقر بها فور أن أجد العروس المناسبة، ولولا أني لا أحب أن أعيش بمفردي لانتقلت إلى هناك على الفور" . عضت على أسنانها بغيظ وهي تستمتع لإجابته .. وكتمت بصعوبة امتعاضها ومصارحته بمشاعرها تجاهه

ضايقها أن تظل فترة إقامته المزعجة معهم مفتوحة .. وإن شعرت ببعض الارتياح لتأكدها أنه سيرحل بمجرد أن يجد العروس المناسبة .. ولكن من هي العروس المناسبة له؟

شغل ذهنها السؤال كثيراً .. شخص مثله ينتمي بتفكيره وتصرفاته إلى مجتمع غربي يتمتع بحرية مجنونة .. ما شكل فتاة أحلامه .. وأين سيتجه تفكيره عندما يبحث عنها .. مرت الأيام ببطء، فكرت جدياً في مساعدته، ولكنها ندمت على اتخاذها تلك الخطوة لاحقاً .. كل فترة ترشح له فتاة ما تراها مناسبة .. وكل مرة يرفضها بأدب .. وباءت كل محاولاتها بالفشل بالرغم مما بذلته من جهد .. وكلما بادرت بسؤاله عن سبب الرفض يهز كتفيه بلا اكتراث قائلاً: "ظريفة .. ولكنها ليست تلك التي في خيالي" . وعندما فاض بها الكيل، تجرأت ذات يوم وسألته : "من هي تلك الفتاة التي في خيالك تحديداً؟" .. صمت وقتاً غير قصير .. ثم أجاب بإيجاز لم يشفي غليلها: "تلك التي تكمل شخصيتي" . وتساءلت ماذا يعني بكلامه .. كانت تراه بالتأكيد شخصية سطحية تافهة .. يعيش حياته بأنانية .. بلا مبالاة .. هل يطمح في امرأة مثله تستطيع أن تتعايش مع تلك الصفات

أسبوع وراء أسبوع يمضي .. ومر شهران بلا جديد .. وزوجها يزيد ابتعاداً عنها .. وفي يوم توجهت مع أحدى صديقاتها للنادى للتنفيث عما بها بعيداً عن المنزل الذي بدأت تشعر فيه لأول مرة بعدم الراحة .. وهناك قابلت هند .. أخت أحدى زميلاتها .. تعرفها من فترة قصيرة فقط .. فتاة ذكية .. جريئة إلى أقصى حد .. عنيدة جداً .. وتتمتع بشخصية مستقلة .. سافرت مع والدها في سن صغيرة ودرست في الخارج

لفترة طويلة .. وعندما عادت كانت أكثر جرأة وتحدياً في طرح آرائها .. في تلك اللحظة خطرت لها فكرة لا تعلم كيف شقت طريقها إلى عقلها بسهولة .. لما لا تجمع بين يوسف وهند .. ربما تكون هي تحديداً من يبحث عنها .. شخصية كل منهما تكاد تكون متشابهه في كثير من الجوانب .. وكلاهما يتبنى الأفكار نفسها تقريبا .. والأمر لن يحتاج منها سوى لتمهيد لائق

تحمست للفكرة .. وسرعان ما بدأت تحاول أن تتعرف على هند أكثر .. بذلت جهداً كبيراً كي تكتسب ثقتها وصداقتها .. وعندما نجحت في كسب ودها، قررت أن تمهد للموضوع .. في اليوم التالي على العشاء تكلمت بشكل بدا عفوياً عن زميلتها، وعن أختها هند .. تحدثت عنها بشكل يثير الإعجاب .. عن ذكائها ولطفها .. عن جرأتها ولباقتها .. عن الوجة الجميل المتمرد، والروح المتحفزة .. شعرت أن خطتها في طريقها للنجاح عندما لاحظت خفية عيني شقيق زوجها تلمعان وهو يتابع حديثها باهتمام .. نجحت بالفعل أن تلفت انتباهه .. تعرفه جيداً .. سيرفض بالتأكيد أي محاولات لفرض فتاة عليه بالطرق التقليدية كما فعل مسبقاً .. ولكن ربما بتلك الطريقة تنجح في أن تثير اهتمامه وتجعله يتلهف لرؤيتها

وقررت أن تقيم حفلاً في بيتها بعد عدة أيام .. انتهزت فرصة عيد ميلاد زوجها .. وكان أول من دعته صديقتها هند وأختها .. في اليوم المحدد بدأ توافد المدعون .. ظلت تراقب خلسة شقيق زوجها .. رأت ملامح القلق تبدو على وجهه بوضوح وهو يصوب نظراته نحو الباب الخارجي من حين لآخر .. وابتسمت لنفسها بثقة .. وعندما وصلت هند حاولت أن ترى انطباعه ولكنه كان قد اختفى .. ضايقها الأمر قليلاً .. أسرعت لاستقبالها بحفاوة وأنضم إليها زوجها .. غادرتهم وذهبت للبحث عنه .. كان يحادث شخصاً آخر .. دعته للتعرف على صديقتها وأختها .. استقبلهم بهدوء .. تبادل كلمات قليلة مع أخت صديقتها .. لحظات وسرعان ما اندمجا في الكلام .. انسحبت بهدوء ولكنها ظلت ترمقهما باهتمام وهما يتبادلان الحديث ويضحكان .. رقص قلبها من الطرب .. ولم يضايقها سوى انضمام زوجها إليهم بعد فترة لتبادل الحديث .. كانت تريد أن تتركهما بمفردهما .. وإن أطمئنت أن خطتها في طريقها للنجاح

في الصباح خرج يوسف مبكراً .. سألته عن المكان الذي يقصده .. أخبرها سريعا أنه ينوي قضاء بعض الوقت في النادي .. لأول مرة يفعل ذلك .. خمنت أنه سيكون معها .. أعدت الإفطار .. سألت زوجها عن رأيه في الحفلة .. تطرق حديثهما إلى هند ..

أثنى عليها بحماس .. ثم أعقب قائلاً: "تبدو كطراز مختلف من النساء لا يمكن لأي رجل أن يراها دون أن يعجب بها .. يوسف يقول أنها تشبهه كثيراً .. يفكران بطريقة متشابهة ويتفقان في كثير من الآراء" . كان هذا بالتأكيد أفضل ما سمعته من مدة .. قررت أن تمضي قدماً في إنجاح مخططها .. حرصت أن تدعو هند كثيراً في بيتها .. لا تترك فرصة دون أن تثنى عليها .. لم تعد تذهب للنادي مع زوجها وأخيه .. تترك الفرصة ليوسف للتعرف عليها هناك أكثر .. أرادت للموضوع أن ينتهي قريباً وتمنت ذلك فزوجها بدأ يتغير كثيراً كما لاحظت .. يبتعد عنها .. يعبر عن أرائه دون اعتبار لأحد .. لم يعد يجاملها كالسابق .. كما أنه يخرج كثيراً ويسهر لأوقات متأخرة ..

ومرت الأيام سريعاً .. وبدأ كل شئ يسير بنجاح لم تتوقعه .. كانت تعلم من زوجها أن شقيقه يقابل هند كثيراً في النادي .. وعندما جاءها شقيق زوجها ذات يوم ليزف إليها خبر عثوره على فتاة أحلامه .. لم تتفاجئ ولم تسأل عن اسمها .. أخبرها بحماس شديد لم تعهده فيه من قبل بأنه حدد موعد للقاء أهلها .. سألها جدياً: "لما لا تريدين معرفة اسمها وأنت صاحبة الفضل في لقائي بها؟" . ابتسمت بثقة دون أن ترد .. في المساء انتهزت الفرصة، قالت لزوجها بدلال: "ما رأيك أن نخرج الليلة للاحتفال بهذه المناسبة" .. هز رأسه بسرعة، همس لها محاولاً تصنع ابتسامة: "لدي اليوم موعد هام لا يمكن تأجيله .. سأعوضك لاحقاً" . هزت كتفيها في أسف وقبل أن يخرج مال فطبع قبلة على خدها .. قبلة باردة دون حرارة لأول مرة لا تشعر بها .. وبدأ شئ بداخلها يقلقها لا تعرف كنهه .. بدأت تراجع حياتها قليلاً .. تأثر زوجها في الفترة الأخيرة كثيراً بأخيه .. يتكلم مثله .. يرتدي مثله .. يعتنق أفكاره نفسا وبات يبدو كنسخة منه .. ولكنها طمأنت نفسها أن لكل شئ نهاية .. سيرحل شقيقه إلى منزله الجديد عما قريب كما تأمل .. وسيعود زوجها إليها كما كان .. ويمكن وقتها أن تستعيد حياتها الهادئة السابقة

في اليوم المحدد ارتدت أجمل ملابسها .. قال لها زوجها مازحاً: "العروس ستكون مفاجأة لك" .. ابتسمت ولم ترد .. سبقها إلى الباب .. أغلقته واتجهت مباشرة إلى المصعد .. سحب زوجها يدها وهو يقول ضاحكاً: "لا داع للمصعد" .. سألته بدهشة: "لما لا .. هل هو معطل؟" .. رد عليها: "لا .. ولكننا لن نحتاج إليه، لن نذهب بعيداً على أي حال" . لم تفهم ما يعنيه .. أسرع وأخيه بارتقاء الدرج .. تبعتهما دون وعي .. في الطابق الأعلى توقفا أمام شقة .. شقة جارتهم .. زادت الدهشة بداخلها ..

استقبلتهم جارتهم بالترحاب الشديد .. قبلتها وهي تدلف للداخل ذاهلة .. لم تعي أي شئ مما يدور حولها .. تم كل شئ بسرعة أفقدتها توازنها .. لم تفق إلا على صوت زغرودة تنطلق من البيت .. غطت أذنيها بيديها .. شعرت أن رأسها سينفجر .. تلك إذن هي المفاجأة .. العروس بنت جارتهم .. الآن فقط بدأت تستوعب كل شئ .. هدى بنت جارتها .. هي من عرفتها عليه .. دعتها إلى حفلة عيد ميلاد زوجها من باب المجاملة .. لم تتعامل معها كثيراً .. خجولة .. هادئة .. تتكلم برقة وتضحك بحساب .. من أسرة محافظة .. تحافظ على مظهرها الجميل بلا تكلف، ولها آرائها التي تعكس شخصية بسيطة تميل كثيراً إلى التدين .. لهذه الصفات لم ترشحها له من قبل .. صحيح أن الفكرة واتتها من قبل ولكنها كانت تعلم أنه سيرفضها .. كلاهما على النقيض تماماً .. هزت رأسها بعنف .. كيف ينجذب ضدان إلى هذا الحد كقطع المغناطيس .. بدأت تفهم الآن سر ذهابه المتكرر إلى النادي، هدى تتطوع هناك في العديد من الأنشطة الأجتماعية .. سر نظراته المتلهفة وقت الحفلة، كانت هي من ينتظرها، ربما رآها من قبل وانتهز فرصة الحفل للتعرف أكثر عليها .. سر حرصه على الصلاة بانتظام وإقلاعه عن التدخين في الفترة الأخيرة، يبدو أنها نجحت في التأثير عليه .. وانفجرت الأسئلة في رأسها .. أسئلة بلا إجابة .. عندما عادت للمنزل لم تستطع أن تمنع نفسها من سؤاله بمجرد أن دلفا للداخل: "لماذا هي .. لما اخترتها بالذات؟" .. سكت قليلاً قبل أن يقول: "كنت أبحث عن امرأة تكمل شخصيتي .. أنا أعرف أنني متحرر .. جرئ ومتهور .. كنت أريد امرأة محافظة، لديها القوة والصبر لتسيطر على تمردي وتقلل من اندفاعاتي .. أنا عنيد وهي ذكية تستطيع أن تقنعنى دون تصادم .. أنا سريع الغضب وهي هادئة بطبعها تستطيع أن تمتص غضبي وتقلب انفعالاتي العنيفة .. امرأة أثق بها عندما تربي أبنائى وتشدني إلى حياة الأسرة التي بدأت أفتقدها" .. سألته بلا وعي: "وهند؟" .. بدا على وجهه الدهشة لبرهه ولكنه أجاب سريعاً: "هند مثلي تماماً .. قابلت في الخارج كثيرون مثلها .. لم أعد أشعر بالانجذاب نحو أي منهن كما كان الحال سابقاً .. أفكارنا ستتصادم من أول لحظة .. أنا أريد أمرأة مثل أمي .. تحتويني وتعطيني إحساس الرجل الشرقي الذي افتقدته في الغربة .. تربي أولادي وتحافظ على بيتي وليس امرأة أصطدم بها وأعيش معها كأننا غرباء"

عندما فكرت في كل ما حدث .. استعادت توازنها مرة أخرى .. رددت لنفسها بسخرية .. وبما يهمني بمن يتزوج .. هدى أو هند أو أي فتاة أخرى .. ما دام سيرحل في النهاية عن بيتي .. وطالما وصلت أخيراً لما أتمناه

وهنا سكتت زميلتنا .. مرت لحظة صمت على الجميع .. فاجأها أحدهم سائلاً: "وما وجه الغرابة هنا .. صحيح أن ما حدث غريب .. ولكنه ليس بالقدر الذي توقعناه" . ارتفعت همهمات موافقة من الجميع .. ابتسمت قائلة: "أنا لم أكمل قصتى بعد" . ساد الصمت مرة أخرى .. أكملت بهدوء حزين:

نعم .. تم كل شئ بسرعة كما أرادت تماماً .. تزوج يوسف وانتقل بعيدا .. وباتت هي وزوجها مرة أخرى لوحدهما أخيراً .. ولكنه لم يعد زوجها .. ما زال يخرج كثيراً .. يعود في أوقات متأخرة .. نظراته إليها دون عاطفة .. كلامه بلا حرارة .. عندما ينام بجانبها لا تشعر بدفء جسمه .. لا يتكلم معها كثيراً كما اعتاد من قبل، ولا يبادلها الاهتمام بشئون حياتهما .. وبدأ القلق القديم بداخلها يكبر ويستفحل .. وفي يوم بالمصادفة رأته يهبط من أحد البنايات وهي معه .. تتعلق بذراعه .. يميل على أذنها فتنطلق ضحكاتهما .. تأكدت ظنونها .. امرأة أخرى .. أتدرون من هي .. هند .. نعم .. تلك التي سمحت لها بدخول بيتها وفتحت لها الأبواب بنفسها .. لم تتمالك نفسها .. هجمت عليه .. دافع عنها .. ألقى عليها الصدمة ببرود بأنهما متزوجان من مدة .. لم تصدق .. عندما احتواهما المنزل سألته شبه منهارة عن السبب .. أطرق إلى الأرض قليلاً قبل أن يواجهها: "أنت السبب .. كلامك عنها أثار فضولي لمعرفتها .. طالما تحدثتي عنها بحماس كبير لا يملك معه أي رجل إلا أن يعجب بها .. لم أستطع المقاومة .. وعندما تعرفت عليها وجدت أنها امرأة مختلفة .. امرأة مميزة تثير الإعجاب والرغبة بالتأكيد .. وكما قلت لك من قبل .. هي طراز مختلف من النساء لا يمكن للرجل مقاومته" .. أذهلتها المفاجأة فلم تعلق .. أدركت فقط في تلك اللحظة أنها كانت حقاً السبب .. أن اللوم لا يقع إلا عليها .. وأن الخطأ كان من نصيبها وحدها .. وبالتالي العقاب .. حاولت أن تنقذ بيتها فهدمته .. مهدت الطريق لامرأة أخرى لأن تشغل قلب زوجها .. أدركت أنها أغبى امرأة في العالم .. امرأة سعت بكل قوة لتدمر حياتها بحماقتها

سكتت قليلاً .. تنهدت تنهيدة حارة .. ثم قالت: بالطبع كانت الصدمة قاسية عليها .. طلبت هند من زوجها أن يطلق زوجته الأولى ففعل .. كانت مسيطرة عليه بالكامل ..

مر عليها وقت طويل بعدها وهي في حالة صدمة .. تهذي وتكلم نفسها كثيراً .. تعاتبها بغضب .. منعوها يوما من محاولة إيذاء نفسها .. كانت على حافة الانهيار .. ولكنها قررت بعد فترة أن لا تستسلم .. استرجعت نفسها ببطء .. وتدريجياً بدأت تعود للحياة .. صحيح أن ما حدث ترك بها آثاراً لا تمحى .. ولكنها ضمدت جراحها .. واستعادت نفسها مرة أخرى

انتهت من قصتها .. ران الصمت على الجميع .. كانت الباخرة السياحية قد اقتربت من الشاطئ .. أفاق أفراد المجموعة على بوق السفينة وهو يعلن قرب الوصول .. بدأ البعض التحرك ببطء .. غادروا أماكنهم واحداً تلو الآخر .. توجهوا للطابق الأسفل لمغادرة السفينة والبعض ما زال يعلق على ما سمعه .. كان غريباً حقاً ما سمعته منها .. ظلت جالسة في مكانها دون أن تتحرك .. تأكدت من انصراف الجميع فنهضت ببطء .. توقفت للتطلع لبرهة إلى صفحة النيل .. كان الظلام سائداً إلا من ضوء النجوم .. لم يتبق سوانا على سطح السفينة .. ومجموعة أخرى من السياح على الجهة المقابلة .. انتهزت الفرصة فاقتربت منها .. شعرت بوجودي .. رأيتها تمسح وجهها بسرعة .. لم أتبين إن كانت تبكي .. وقفت أنظر إلى النيل بصمت للحظة .. للتفت إليها ثم قلت: "أريد أن أعرف نهاية القصة حقاً .. كيف انتهى بها الحال؟" .. ابتسمت بشحوب ثم قالت بلا مبالاة: "نهاية عادية .. عادت إلى حياتها .. وجدت عملاً .. أصبحت تقضى فيه معظم وقتها .. تحاول أن تبتسم للناس وهي تداوي الجرح النازف بداخلها .. وتستقبل حياة جديدة بقلب محطم .. ما رأيك في قصة تلك المرأة الحمقاء ؟" .. قلت لها بجرأة لم أظن أني أمتلكها: "هل أعرفها؟" .. لم تجب .. تجرأت أكثر .. وقفت أمامها مباشرة .. قلت لها بحماس: "قصة غريبة لكني أرفض النهاية .. لست أراها حمقاء .. بل على العكس امرأة مخلصة حاولت الحفاظ على بيتها بكل قوة بصرف النظر عما انتهت إليه الأمور .. بل أظن أنها محظوظة .. لو كان يحبها حقاً ما تخلى عنها في النهاية" .. لم تتكلم فأكملت بحرارة: "من يعلم .. ربما ما حدث كان في مصلحة شخص آخر .. شخص يحبها ولا يتمنى سوى امرأة مثلها .. شخص لن يضحى بها من أجل أخرى مهما فعلت حتى لو جلبت بنفسها ألف امرأة إلى منزلها .. لأنه لن يرى ببساطة سواها" .. أطرقت للأرض دون كلام .. تابعت كلامي بتهور واندفاع صادق: "شخص مجنون يقف أمامها وهو يصارحها بمشاعره نحوها وينتظر جوابها" .. ابتسمت وهذه المرة لم تستطع أن تمنع دمعة سالت من عينها .. لم تتكلم وإن كان صمتها يحمل كل الكلام .. أسندت يدها إلى السياج بينما وقفت على مسافة

قريبة أرقبها بدفء قبل أن يجذبنا منظر النيل وقد انعكست على صفحته أضواء الشاطئ فزادته جمالاً

الحاجز

اقتربت من النافذة .. صاحت بفرح: أخيراً جاء

تطلعت إليها بغيظ .. راقبتها بصمت وهي تعدو مسرعة نحو الباب ترتسم على وجهها تلك الابتسامة الطفولية البلهاء .. كتمت دهشتي ولم أشأ أن أعلق على تصرفها .. ما زال صدى كلامتها يدوي في أذني وهي تشكو لي بمرارة من قسوة معاملته لها .. ومنديلها المبلل بالدموع ما زلت أراه عند طرف المائدة لم يبرح مكانه بعد كشاهد إثبات لا يكذب على معانتها معه .. والآن تهرع للقائه! .. بل وأشاهدها تغالب شوقها بصعوبة للارتماء بين ذراعيه .. لم يعد يدهشني سلوكها .. بمجرد أن يتناهى إلى سمعها وقع خطواته حتى تستجمع نفسها سريعاً .. تنسى أو تتناسى كل ما قالته .. وتستقبله بقلب صاف تطرح سريعاً منه كل معاناتها السابقة معه .. أعلم أنها تعشقه .. ولكن هل حبها مبرر كاف يبيح لها أن تمنحه صك غفران مجاني عن كل أخطائه، وتضع ما تبقى من كرامتها تحت أقدامه مرة أخرى كي يركلها مجددا كيفما شاء

نهضت .. لم تلحظني وأنا أتجه لباب الخروج بعد أن انشغلت بتعديل زينتها .. فضلت أن أنسل بعيداً .. لا أفضل رؤيتها وهي ترتمي في أحضان ذاك الذئب .. مسكينة هي .. هل تظن أن غفرانها المتواصل لكل آثامه سيجعل منه إنساناً أفضل، وأن تقمصها دوماً لدور الشهيد سيرغمه على أن يعيد حساباته .. أناني هو لا يجيد التفكير إلا في نفسه .. كائن لم يخلق ليعشق أكثر من ذاته ولا يكفي فضاء العالم بأكمله لاستيعاب حجم غروره .. يدهشني استسلامها الكامل لإنسان لا يدرك قيمتها ولا يكترث لأي من مشاعرها التي تغدقها عليه بلا حساب .. بل ويتعمد أن يجرحها بسخاء يوازي مدى عشقها له .. غادرت المكان بلا كلام، سمعت وقع أقدامه على الدرج ففضلت أن أستقل المصعد كي أتجنب مقابلته .. لست مثلها .. لا أستطيع التحكم في مشاعري وما يدور في قلبي يطلقه دوماً لساني مهما بلغت درجة حدته .. لو قابلته ربما لقنته درساً قاسياً كي يتعلم أن يتصرف كرجل ويتوقف عن إهانة من تحبه حتى الجنون، وقد أندم على ذلك لاحقاً لأني وقتها ربما أخسر صديقتى

أعرفها من فترة طويلة .. أكاد أجزم بأنها صديقتي الوحيدة .. لا أنكر أني أخاف عليها خاصة أنها تمتلك قلباً مرهفاً لا يتيح لصاحبه القدرة على التكيف وسط عالم قاس كعالم البشر .. قلب حساس قابل للكسر لا تلتئم جراحه من صدمات العالم بسهولة ..

تعرفت عليها قبل عامان من زواجها .. في الوقت نفسه تقريباً الذي اقتحم حياتها ذلك المخادع .. اعتدنا أن نقضي كثير من الوقت معاً ولم نكن نفترق إلا قليلاً .. منذ تعرفت عليه ومعظم حديثها لا يدور إلا حوله .. غرامها المفاجئ به أثار دهشتي .. أدرك سمعته جيداً .. ذئب نساء لا يسعده أكثر من أن تتضخم قائمة ضحاياه، ولا يرضي غروره سوى ممارسة لعبة تحطيم القلوب دون توقف .. اندفعت في علاقتها معه بشكل أعمى تجاوز كل الحدود .. انخدعت بمظهره وكلامه الخادع .. لم تدرك أنه صائد قلوب محترف لا يجيد أكثر من التنكر في ثوب عاشق للوصول إلى هدفه .. حاولت تحذيرها منه عدة مرات ولفت أنظارها إلى ماضيه الملوث لكنها لم تستمع لي .. وواصلت إبحارها نحوه باستسلام غير ملقية بالاً بكم التحذيرات التي قابلتها في طريقها

رقيقة هي تفكر ألف مرة قبل أن تتفوه بكلمة يمكن أن تؤذي أحداً .. ما زلت أتذكر جيداً المرة الوحيدة التي خرجت فيها عن شعورها معي؛ أخبرتها يومها أني رأيته بصحبة امرأة أخرى وكنت صادقة تماماً .. لم تتحمل كلامي وكادت تفقد عقلها .. ارتعدت شفتاها وهي ترميني بالكذب واتهمتنى بقسوة بأني أغار منها .. ظهر الانفعال على وجهها واضحاً قبل أن تنفجر في بكاء طويل .. طلبت مني وقتها لأول مرة أن أفارقها .. رغم قوة صداقتنا إلا أنها كادت أن تنهار بسبب مكاشفتي لها بحقيقته، واستغرق الأمر وقتا طويلا حقاً لنعود كما كنا .. تعمدت من وقتها أن أكتم اتهاماتي و شكوكي تجاهه، وأن أتجنب إثارة الحديث حول خياناته لها مرة أخرى

حاولت أن أحذرها من أن تندفع في علاقتها معه دون جدوى .. قرأت أن الحب أعمى ولكني لم أدرك أنه بهذا القدر من الغباء .. من أول لحظة في علاقتهما وهو يعاملها كدمية ساذجة يحركها كيفما يشاء .. استغلها كثيراً .. بريئة هي في زمن تصبح فيه البراءة عيباً جسيماً يسعى الجميع للتخلص منه .. لم تعتاد التعامل مع أمثاله والتلون مع كل شخص كما يجيد البشر .. لم تكن سوى مجرد رقم بالنسبه له يضاف إلى قائمة مغامراته ليرضى غروره فيما بعد .. ولكن الأمر تغير بعد أن أدرك قيمة ثراء والدها .. لم تكن لها تجارب أو خبرات .. مجرد حب ساذج على فترات من حياتها لم يرتقي لتلك الدرجة من الافتنان حد الجنون .. خطط لحرب طويلة ليوقعها في شباكه ولكنها انهزمت من أول جولة .. أعلنت استسلامها بعد أن نجح في أن يحرك قلبها للمرة الأولى في حياتها .. اندفعت معه بكل مشاعرها .. وقفت بجانبه وساعدته بلا حدود ..

ألححت عليها كثيراً لإعادة التفكير في علاقة مصيرها الفشل .. ليست علاقة الحب هي ما تنشأ عادة بين الحمل والصياد ولكنها لم تستمع إلي .. لا أنكر أني كرهته من اللحظة الأولى التي وقعت فيها عيني عليه .. ولكن القلب الذي يعشق تشير بوصلته دوماً باتجاه من يحب فيبحر نحوه دون عقل حتى لو أدرك أن اتجاهه خاطئاً ..

بعد زواج سريع عارضه أهلها دون فائدة، انتقلت للسكن بجوارها .. زادت صداقتنا عمقاً بعد أن اكتشفت متأخرا بعد زواجها أن له مخالبا وأنياباً .. لم أشأ أن أتخلى عنها أنا الأخرى وأتركها في محنتها معه بمفردها .. لو فعلت لانهارت بلا جدال .. ما زلت الأذن التي تتلقى بصبر كل شكواها والقلب الذي يتسع ليشاركها محنتها واليد التي تمسح دموعها .. صدمتها فيه بعد الزواج كانت أكبر من أن تتحملها فانطوت أكثر .. ازدادت نحولاً وضعفاً مع الأيام وأنا اشهد ذبولها عاجزة عن التدخل .. بدأنا نلتقي بشكل متكرر في الاونة الأخيرة .. تلجأ إلي عقب كل شجار بينهما لعلها تسكب بعض مما يتأجج بداخلها أمامي فتستريح .. بمجرد أن ينصرف حتى تهرع للاتصال بي وتفرغ في حضوري كل مشاعرها السلبية .. تستعيد بعدها قليل من هدوئها وقوتها لفترة فتتمكن من مواصلة الحياة معه وتحمل إهاناته المتواصلة ..

أشعر بالمرارة من خياناته المتكررة لها .. مرارة تدفعني لمحاولة رعايتها أكثر .. بداخلها طفل صغير يحتاج دوماً إلى عناية لم يفطم بعد على مواجهة عالم تملئه الخيانة .. تساءلت كثيراً .. إلى متى تتحمل كل ذلك .. استقبلت حياتها معه في البداية بإشراق على أمل أن يعوضها فزاد من عمق جراحها .. حقيقته الصادمة لها أفقدتها حيويتها واتزانها فتهاوت مع مرور الوقت .. صبرت على اختيارها وتحملت نتائجه لفترة بشجاعة لم أظن أنها تمتلكها .. حاولت أن تستعيده أكثر من مرة ولكنه رفض كل قيودها .. هرب منها بعد أن اكتشف أن دجاجته التي خطط طويلاً لاصطيادها لم تعد قادرة أن تنتج وتمنحه كالسابق بيضاً ذهبياً بعد أن هجرها أهلها .. حلق في سمائه بمفرده بعيداً عن فريسة تركها عاجزة عن الطيران .. تحول حبها إلي جنون، فاستسلمت له لعله يكون أرحم من واقع أشد ألماً لا تجد خلاصاً منه ..

انتابنى اليأس ذات مرة من إصلاحها فوجهت لها كلاماً حاداً لا أدرك كيف تفوهت به، واتخذت قراري بأن أواصل حياتي دونها .. لم يعد هناك أمل أنتظره في إصلاحها .. ولكنى علمت لاحقاً أنها انهارت ووقعت فريسة سهلة للمرض فلم تقدر حتى على مغادرة الفراش .. زادت شفقتي نحوها وصممت أن لا أتخلى عنها مجدداً .. حاولت

أن أساعدها .. ضغطت كثيراً وبشكل مستمر حتى لجأت أخيراً لأهلها تشكو منه .. ولكنهم فضلوا عدم التدخل بعد أن اختارت طريقها بنفسها .. ولم تكرر المحاولة مرة أخرى

حكمي عليه كان صائباً من البداية وتزيدني الأيام قناعة به .. إنسان مختل وجد فريسة سهلة فلم يتردد في التلاعب بها .. في أحد الأيام أرتنى آثار ضربه لها .. لم أصدق أن يصل تهوره واستهانته بها لتلك الدرجة .. لم أتمالك نفسى .. انفجرت في وجهها .. بكت بحرقة وهي تعدني أن لا تقف ساكنة أمام همجيته الغريزية معها مرة أخرى .. كنت أعلم أنها تكذب وأنها ستواصل التخاذل أمامه .. وددت لو أذهب إليه وألقنه درساً لا ينساه طوال عمره ولكنها منعتني بصعوبة .. لو كان الأمر بيدي لأقدمت على أي تصرف لأحطم غروره حتى لو وصل الأمر إلى أن أحطم رأسه بيدي ..

في مساء ذلك اليوم تلقيت اتصالاً منها .. لم أفهم معظم كلامها فهرعت إليها على الفور .. بمجرد أن رأيتها حتى صدمت .. لم أتعرف عليها للوهلة الأولى .. أعز صديقاتي ترتمي أمامي على الأرض في حال يصعب وصفها .. تنتفض خوفاً وتتنفس بصعوبة .. ملابسها ممزقة والدماء تسيل بغزارة من جرح أعلى شفتيها فتندفع لتغطى النصف الأسفل من وجهها ورقبتها .. وكدمات حديثة ظهرت بوضوح على ذراعيها وأسفل عينها .. بمجرد أن رأتني حتى انهارت .. أسرعت لنجدتها .. لم تكن في حالة من الوعي تسمح لها بأن تتكلم ولكني أدركت ما حدث .. انتابني غضب لم أستطع تجاهله .. كنت أكره هذا اللعين من قبل والآن لم أعد أحتمل وجوده بيننا على أرض واحدة .. حاولت صديقتي أن تستجمع نفسها لتتكلم وبذلت مجهوداً لذلك فلم تستطع .. ذهبت لأجلب بعض الماء وعدت لأجدها فاقدة الوعي .. مددتها على الأرض وتركتها ملقاة كجثة أقرب للموت منها إلى عالم الأحياء، ولم أفكر وقتها سوى في شئ واحد .. اندفعت إليه دون تردد .. انطلقت كالمجنونة بقوة مشاعر حجزتها لفترة طويلة .. سمعت صوته من غرفة المكتب فتوجهت إلى هناك .. اقتحمت المكان بثبات .. رأيته يدخن ويحادث شخصا ما على الهاتف بصوت عال .. من ضحكاته وكلامه المعسول أدركت أنها أحدى عاهراته .. أنهى المكالمة بمجرد أن اقتحمت المكتب بشكل مفاجئ .. اندهش لوجودي أمامه بتلك الصورة المباغتة .. لوح بيده وصاح بكلمات غاضبة لم أتبينها فلم أعد قادرة على سماع شئ سوى صوت خفقات قلبي العالية، وأنين صديقتي الذي ما زال يتردد في أذني .. نظرت إليه بثبات والشرر يتطاير من عيني .. توقف

عن كلامه .. تطلع إلي لبرهة ثم تقدم نحوي ببطء وهو يبتسم بسخرية أشعلت مزيدً من النار في قلبي .. رغم غضبي تجمدت في مكاني لم أدري كيف أتصرف .. تذكرت كل ما حدث لصديقتي .. كل إهاناته المستمرة لها وعذابها على يديه .. وكرهي و بغضي الذي أكنه له من فترة ليست بالقصيرة .. راقبته يدنو مني ببطء .. اقترب مني وابتسامة استهتار تتراقص على شفتيه حتى وقف بمواجهتي تماماً .. مد يده تجاهي محاولاً أن يلمسني .. تطلع لوجهي لثوان، ثم تحسس خدي دون أن أتحرك .. شعرت بلمسة يده الباردة .. اقشعر بدني لكني لم أتحرك .. تجمدت أطرافي فجأة .. أغمضت عيني لبرهه وهو يواصل لمس خدي .. شعرت بتخاذل فتراجعت لخطوة باستسلام .. شعرت بأنفاسه الحارة تنعكس على وجهي .. التصقت بالمكتبة من خلفي .. لم أشعر إلا ويدي تتحسس تمثال صغير، تمثال معدني على هيئة فتاة راقصة على رف المكتبة .. تشبثت به بسرعة .. كتمت أنفاسي تماما .. فتحت عينى ثم سريعا رفعت التمثال بيدي عالياً لأهوي به عليه .. ولكنه حمى وجهه بيديه وتراجع في رد فعل سريع قبل أن أحكم ضربتي فلم يصب بأذى كبير .. رأيت نظرات الغضب تتطاير من عينيه .. اندفع نحوى بجنون .. تراجعت خطوة للوراء وفي تلك المرة أحكمت قبضتي على التمثال حتى أصبح كأنه قطعة من يدي .. ما أن اندفع نحوي حتى هويت به على رأسه .. تلك المرة ترنح وبدأ خيط من الدماء يندفع متعرجاً من مقدمة رأسه .. تحولت نظرة الغضب التي كانت ترتسم على وجهه إلى ذهول ويده تتحسس بلا وعي السائل الأحمر اللزج .. انسال الدم بعدها غزيراً .. لم أشأ أن أتوقف .. تراجع خطوات فدنوت منه وبيدي التمثال .. قبل أن يفيق من صدمته رفعته لأعلى قدر إمكانى .. تريثت لبرهة ثم هويت بها عليه .. صوت مكتوم انتشيت به .. كررت الضربة دون إرادة أو وعي .. لا أدري كم مرة رفعت يدى وهويت لأحطم رأسه .. حتى بعد أن خمدت حركته تماماً واصلت ضربي له حتى خارت قواي .. نهضت وأنا ألاحق أنفاسي بصعوبة .. تسارعت نبضات قلبي بشكل لم أختبره من قبل .. غطت الدماء وجهه وتناثرت على جسمي وملابسي .. نهضت ببطء .. مشيت لحظات فترنحت وكدت أسقط .. تمالكت نفسي بصعوبة .. نظرت للجثمان الغارق في الدماء بلا شعور .. تقدمت نحو الباب وأنا أستند على جدران المكتبة .. قبل أن أخرج لمحت انعكاس صورتي في المرآة .. شئ ما جذب انتباهي للعودة إليها .. تقدمت للمرآة ووقفت أمامها لثوان أتطلع لنفسي دون وعي .. وجه محتنق ويدان ترتعشان وفم مرتجف لكن عيناي تلمعان بشكل غريب لم أره من قبل .. تطلعت للمرآة مرة أخرى

بعمق بعد أن اقتربت منها أكثر .. ثم ارتسمت على وجهي شبح ابتسامة ضئيلة رأيتها بوضوح

الغريب أنى لم أعد أرى صورتي في المرآه .. كانت تنعكس عليها صورة امرأة أخرى أشبه بصديقتي، امرأة يديها تقطر دماً وكدمات تعلو وجهها وذراعيها .. على شفتيها ابتسامة ضئيلة .. وخيط من الدماء ينساب بوضوح من جرح صغير أعلى شفتيها

المقلب

- لا أفكر في هذا الأمر .. أبعدا عني

هكذا قالها محمود وهو يشير لنا بالابتعاد .. ولكن كان في عينيه نظرة اقتناع بما نقوله يحاول أن يخفيها .. غمزت لمحسن خلسه لكي نواصل عليه الضغط حتى يقع في الحيلة الجديدة التي دبرناها له

نحن الثلاثة أصدقاء منذ الطفولة .. نسكن في حارة واحدة .. محمود يصغرنا بعام واحد .. درس في الأزهر ووالده أمام مسجد حارتنا البسيطة .. نشأ طيباً مثل أبيه .. يتعامل مع الناس بالفطرة وبحسن نية أوقعته في كثير من المشاكل .. لا نكاد نفترق .. نتقابل أحياناً للصلاة في المسجد فنصلي وراءه خاصة أن صوته جميل .. يطلقون عليه في حارتنا الشيخ محمود رغم صغر سنه .. خبرته في الحياة قليلة ولم تعركه الدنيا بعد .. ولذلك كان صيداً سهلاً لاثنان من العابثين مثلنا أنا ومحسن

قال لنا أحد جيراننا من قبل: أنتما شيطانان .. أبعدا عن المسكين محمود

ولكننا كنا نتسلى فقط .. كنا نضايقه وندبر له العديد من المقالب .. نعترف أننا في بعض الأحيان نتجاوز الحد .. نوقعه في مطبات صعبة ولكننا لم نقصد من وراءها سوى الضحك .. صحيح أنه كان يغضب منا أحياناً ولكنه سرعان ما ينسى ويسامحنا .. لا يستطيع أن يحمل في قلبه أي شعور سئ تجاه أحد .. ولا في عقله متسع لبذرة من خبث أو دهاء .. وهذا ما كان يشجعنا

نتذكر يوم قرر الذهاب للقاهرة لأول مرة .. أقنعناه بركوب القطار .. حجزنا له التذكرة .. أوصلناه إلى هناك .. ناولناه الحقائب وودعناه .. انطلق القطار وهو يشير لنا .. وانطلقت معه ضحكاتنا .. لم يعرف إلا بعد ساعة أن القطار كان متجهاً لأسيوط .. يومها أقسم أنه لن يكلمنا .. ولكنه لم يستطع وصام ثلاثة أيام .. ولم نستطع نحن أيضاً أن نتوقف عن مواصلة مقالبنا له

في تلك المرة كان الأمر مسلياً في البداية .. مجرد لعبة .. لا أعلم متى بدأت تحديداً .. كل ما أتذكره أننا اجتمعنا في أحد الأيام بعد الانتهاء من صلاة العشاء .. نتجاذب الحديث كعادتنا في عدة موضوعات قبل أن يأتي موضوع الرؤيا الصالحة في سياق حديثنا .. وبدأ كل منا يحكى عن رؤية غريبة رآها في منامه من باب التسلية .. كنا

نحكى ونحن نضحك .. وجاء الدور على محمود .. أطرق للأرض وسكت قليلاً فشجعناه على مشاركتنا بالحديث فامتنع لبرهه قبل أن يستجيب مضطرراً تحت إلحاحنا المتواصل ..

في تلك الفترة انتشرت بشكل مكثف على الفضائيات برامج عن تفسير الأحلام .. وكنا نعلم أن محمود بدأ في الآونة الأخيرة ينجذب إلى عدد من تلك البرامج ويصدقها .. بل ويتابعها ويدافع عنها بحماس .. بينما كنا نسخر منها أنا ومحسن .. ونراها وسائل للنصب على الناس .. ومجرد هراء لا طائل منه .. ابتسم محمود في براءة عندما حان عليه الدور .. حكى لنا بعفوية عن رؤية غريبة واتته من فترة قصيرة فقط .. كان يحكي أنه رأى فتاة يعرفها من جيرانه .. وقد ابتسمت له ثم كشفت عن شعرها أمامه رغم المعروف عن تدينها وبعدها مدت له يدها بشئ لا يتذكره وهي تصافحه، قبل أن تختفي سريعاً من أمامه .. روى لنا الأمر ببساطة شديدة وبتلقائيته المعهودة .. وظل بعدها يستغفر كثيراً وكأنه ارتكب خطيئة ما .. لم يهتم محسن بما قاله محمود .. مثل تلك الأحلام كنا نراها كثيراً .. خيالات مراهقة تنتابنا أحياناً .. وربما كان محمود في واقع الأمر معجباً بتلك الفتاة يكتم إعجابه فحلم بها بلا وعي .. وهنا فقط واتتني فكرة لا أعلم كيف شقت طريقها إلى عقلي بسهولة .. مقلب جديد ربما .. وهو الذي منحنا الطعم تلك المرة الذي نصطاده به .. ساد الصمت بيننا لبرهه بعد أن أنهى محمود كلامه، سألته متصنعاً البراءة إن كان يعرف تلك الفتاة وأهلها جيداً .. أجابني بحماس : بالطبع .. جيراننا منذ أكثر من خمس سنوات .. رأيته يقترب من الفخ أكثر .. سألته باهتمام أكبر: وهل تشهد على أخلاقها .. رد بحسن نية: أكيد .. بنت ممتازة دون أدنى شك

لم يفهم محسن سبب أسئلتي .. غمزت له أن ينتظر وتعمدت الصمت .. تظاهرت بالتفكير لبرهة .. استغرب محمود طول سكوني على غير العادة فسألني عما أفكر به .. هززت رأسي متصنعاً الحيرة قبل أن أقول بهدوء: يبدو من الحلم الذي حكيته يا محمود أنه رؤيا صالحة ..

رأيت ملامح الدهشة ترتسم على وجهه بوضوح، لم يتمالك نفسه فسأل: هل أنت متأكد مما تقوله .. كيف ؟ .. نجحت في إثارة فضوله إذن .. أردفت: ألم تكن تتكلم منذ قليل عن الرؤيا الصالحة .. هذا الحلم به كل شروط وعلامات الرؤيا الصالحة كما نعرفها بكل تأكيد ..

نظر إلى لبرهه دون أن يتكلم .. رأيته وقد بدأ يفكر في الأمر .. لم أمهله طويلاً فملت على أذنه قائلاً: أتعرف ما هو التفسير المحتمل له ..

أكتسى وجهه بفضول لم يستطع أن يخفيه .. اقترب مني أكثر يترقب إجابتى بشغف .. قلت له مبتسماً: هذا الحلم ربما يكون علامة مؤكدة بالنسبة لك يا محمود ..

سكت فلم يتكلم .. وجدته يصغي إلى بكل جوارحه .. أكملت بحماس وأنا أميل على أذنه: علامة على أنك ستقترن بتلك المرأة في المستقبل .. ربما ستتزوجها عما قريب كما يبدو

حاول محسن أن يكتم ضحكة كادت أن تخرج منه وقد فهم ما أرمي إليه .. رمقني محمود باستنكار تام محاولاً أن ينهض بعيداً عني .. اقتربت منه .. لن أدع تلك الفرصة تفلت مني .. شددت على يده ثم سألته فجأة: أين تكشف المرأة شعرها؟ .. لم يرد .. أردفت مجادلاً: أليس في البيت .. أمام أهلها أو زوجها؟ أجابنى بعد تردد: صحيح .. أكملت مفسراً: أنت لست من أهلها بالطبع حتى تكشف عن شعرها أمامك .. إذن لا بد أنك زوجها في الحلم لتقوم بذلك دون حرج .. كما أنها صافحتك بيدها وهذا دليل واضح على الارتباط .. وأعطتك شيئاً ما ربما يكون خاتم الزواج أو موافقتها على الأمر .. وأنت بنفسك أثنيت على أخلاقها .. وقلت أنهم جيرانك من فترة طويلة .. هذا الحلم علامة واضحة لا تقبل الشك على أنك ستتزوجها ..

فهم محسن الحيلة الجديدة .. كنا نتسلى فقط .. كنا نعرف محمود شديد الخجل ولم يفكر في الزواج من قبل .. كما أننا كنا ننتقد فكرة إيمانه الغريب بتفسير الأحلام .. وفي الواقع لم نكن نعرف الفتاة التي يتكلم عنها .. كل ما نعرفه أنها من عائلة ميسورة الحال وتقدم لها كثيرون بالفعل من قبل ولكنها رفضت كل من تقدم إليها .. كانت سترفض محمود قطعاً فمحمود لا يملك من حطام الدنيا أي شئ يشفع ولو قليلاً لصاحبه، كما أنها أكبر منه عمرا .. ارتبك محمود قليلاً بسبب كلامنا؛ دليل ظاهر على أنه بدأ ينخدع به .. سرح ببصره بعيداً .. ربما كان يتخيلها الآن زوجة له .. أفاق سريعاً .. هز رأسه بعنف بعدها قبل أن يصيح بغضب محاولاً إنهاء الحديث: لا .. أنا لا أفكر فيها إطلاقاً .. أبعدا عني

نهض من مكانه فجأة .. تطلع إلى طويلاً محاولاً أن يتبين مدى جديتي .. تصنعت الجد .. طلب بحسم أن لا نخوض في هذا الأمر مرة أخرى

سرنا معه بصمت .. أدركنا بوضوح أنه لم يقتنع بكلامنا بعد .. لم نيأس بطبيعة الحال .. كل ما سنحتاجه فقط بعض الوقت ولكننا سنتمكن في النهاية من إقناعه .. نعرفه جيداً .. عرضنا عليه بتحدي قبل أن ينصرف أن نسأل أحد الشيوخ من المهتمين بتفسير الأحلام .. فكر لبرهه ثم وافق بعد تردد .. اتفقنا على هذا الحل

بمجرد أن انصرف حتى انفجرنا في الضحك أنا ومحسن .. وتخيلنا شكل محمود بعد أن يعرف الحقيقة .. ربما ستكون صدمة له تدفعه في المستقبل للتفكير أكثر من مرة وبموضوعية أكبر قبل أن يصدق أي خرافات يسمعها فيؤمن بها

في المساء التالي استعان محسن بأحد العمال .. رجل أشيب يبدو عليه الوقار يعمل كحارس بسيط في نفس الشركة التي يعمل بها محسن كمحاسب .. وأدعى أنه يجيد تفسير الأحلام .. في البداية تردد محمود في قص أي شئ مما حلم به .. تردد طويلاً في الواقع قبل أن يحكي في النهاية عن حلمه للتخلص من ضغطنا المتواصل عليه .. بالطبع أخبره صديقنا بما أردنا .. و لتأكيد الأمر أكثر .. حكى له عن أحلام كثيرة مشابهه فسرها وتبين صحة تفسيره لها فيما بعد .. لم يعقب محمود وإن كان واضحاً أن اعتراضه على الأمر بدأ يقل

ظللنا عدة أيام نلح عليه .. في أحد المرات زل لسانه .. صاح بنا: كيف أتقدم إليها وأنتم تدركون جيداً مدى ثراء عائلتها، وأنا لست كفؤاً لها بأي حال .. أخشى أن أقابل بالرفض من أهلها إن فعلت . . فضح محمود ما بداخله ببساطة .. أدركنا أنه بدأ يفكر في الموضوع بجدية .. وأن خطتنا نجحت

كنا بالطبع ننوي أن نخبره أنها مزحة في الوقت المناسب .. ولكن حدث كل شئ بعدها بسرعة كبيرة .. سافرت أنا للخارج في بعثة دراسية بعد عدة أسابيع .. بينما تحصل محسن على عقد عمل في أحد الدول العربية .. نسينا الموضوع تماماً أو انشغلنا به وسط استعدادنا للسفر وانهماكنا في الإعداد لخوض تجربة الغربة وبدء حياة جديدة طالما سعينا إليها .. كنا نوقن أن محمود لن يفكر بالموضوع مرة أخرى .. وأنه سينسى الأمر برمته بمجرد ابتعادنا عنه .. تراسلنا في البداية لفترة ثم انقطعت أخبارنا عن بعضنا البعض تماماً بعد سنوات قليلة

جرفنا فيضان الغربة .. وشغلتنا مشاكل الحياة عن التفكير إلا في أنفسنا .. عندما رجعت بعد عدة سنوات في أجازة قصيرة كان أول ما حرصت على القيام به هو

السؤال عن محسن ومحمود .. اكتشفت أن كل منهما غير مكان سكنه .. سألت عن محسن أولاً .. عرفت أنه عاد للوطن منذ شهور قليلة فقط .. وجدت عنوانه بصعوبة بعد أن سألت أحد أقاربه .. توجهت إليه على الفور يدفعني الشوق لرؤيته .. قابلته في مكان عمله الجديد .. بمجرد أن رآني حتى هرع إلى لقائي بحرارة .. جلسنا بعدها نتكلم بشغف ونحن نستعيد ماضينا .. أدركت من الوهلة الأولى أن صديقي تغير حقاً .. شاب شعره وفقد مرحه القديم المحبب واختفت تلك الابتسامة الجميلة التي كانت تميزه .. من الواضح أن سنوات الغربة تركت آثارها القاسية عليه .. تحاورنا طويلاً .. عرفت منه أنه عانى كثيراً في غربته قبل أن يعود بمبلغ مالي لا بأس به يحاول أن يبدأ به حياة جديدة هنا .. بدأ مشروعاً صغيراً يعمل فيه طوال اليوم بلا راحة .. صارحته بدوري أنني لا أستطيع العودة والاستقرار في الوطن قريباً رغم تلهفي وشوقي لذلك.. لن أتمكن من العثور على عمل هنا يوفر لى نصف ما أتقاضاه بالخارج .. ولا المكانة نفسها بالطبع أو حتى أخرى قريبة منها .. من الواضح أن الحياة أصبحت صعبة حقاً على كل منا

بدأنا نستعيد ذكرياتنا .. تذكرنا محمود .. ضحكنا .. سألت محسن عنه .. أخبرني أنه تحصل على عنوانه الجديد من فترة طويلة لكنه لم يستطع زيارته بسبب انشغاله في مشروعه الجديد وإعادة ترتيب حياته بعد سنوات الغربة .. لم نفكر طويلاً كعادتنا .. وقررنا أن ننطلق لزيارته في أقرب وقت

في اليوم التالي توجهنا لزيارته، كان العنوان في حي راق .. عندما سألت طفل يلهو في الشارع عن العنوان أشار إلى عمارة شاهقة .. نظرنا لبعضنا بدهشة .. قلت لمحسن: هل يمكن لصديقنا محمود أن يقطن أحد شقق تلك العمارة الفاخرة حقا.. سألت الطفل عن رقم شقة محمود .. تطلع إلى بعدم فهم لبرهه قبل أن يجيبني في براءة بأنه هو صاحب العمارة

تملكنا الذهول للحظات .. ساد الصمت بينا لثوان .. أشرت لمحسن الذي تسمر في مكانه من المفاجأة .. اقتربنا من البناية .. سألت البواب عن صاحبها .. استئذنا لينادي على "الحاج محمود" .. غاب عنا في الداخل سريعاً فلم نستطع أن نوجه له مزيد من الأسئلة تشبع فضولنا .. لحظات وكان محمود يقف أمامنا .. بمجرد أن رآنا حتى استقبلنا بترحاب شديد .. لم نصدق أعيننا عندما رأيناه .. أمتلأ جسمه قليلاً وشاب شعره لكنه ما زال يمتلك تلك الابتسامة الصافية .. يرتدي عباءة فاخرة يفوح منها

رائحة عطر غال بينما يده كالعادة تداعب مسبحته .. نفس مسبحته القديمة كما نتذكرها .. دعانا بالترحاب إلى شقته الفخمة .. بدأنا نسترجع ذكرياتنا بشوق .. سألنا عن أخبارنا بلهفة .. لم يتغير قلبه .. ما زال طيباً كما كان .. نقياً كما عهدناه من قبل .. مر الوقت سريعاً فلم نشعر به ونحن نتكلم ونضحك من قلوبنا .. تكلمنا عن المقالب التي كنا ندبرها له فكان يضحك معنا بعفوية دون غضب .. ولكن ظل تساؤل هام يدور في أذهاننا ويلح علينا .. سألت محمود فجأة: من أين لك كل هذا يا شيخ .. لا تقل أنك ورثت

ضحك بعفوية .. رد ببساطة: أنتما السبب

رددت في دهشة: نحن .. كيف ؟ قال بتلقائية: نعم .. أسند ظهره للوراء .. ابتسم في مرح .. سأل بهدوء: أتتذكرون المرأة التي قلتم لي أنني يجب أن أتزوجها .. جارتنا التي رأيتها في الحلم .

لبرهه لم أتذكر قبل أن أستجمع أفكاري .. كنا قد نسينا الأمر مع مرور الوقت .. أسقطناه من حساباتنا تماماً .. قطع أفكاري وهو يكمل: لقد تزوجتها .. نعم .. اقتنعت بكلامكما بعد فترة أنها رؤية صالحة .. تقدمت إلى أهلها بعد تردد طويل وأنا أقدم ساقاً وأؤخر الأخرى .. من الغريب أنهم وافقوا رغم قلة إمكانياتي المادية .. والدها رجل متدين وقال أنه يهمه الأخلاق في المقام الأول، لكني علمت لاحقاً أن الفضل في ذلك يرجع في الواقع إليها .. لم تبدي اعتراض على طلبي للاقترات بها كما حدث مع كل من تقدم إليها من قبل فلم يملك والدها إلا الموافقة .. بعد وفاة والدها .. ورثت مبلغاً بسيطاً من المال ادخرناه وقطعة كبيرة من الأرض .. قطعة أرض زراعية على مدخل المدينة أهملناها لفترة .. بعد عدة أشهر دخلت الأرض في حيز العمران .. قدرت ثمنها بمبلغ كبير .. بعناها فوراً بلا تردد .. كان أول ما فعلناه أن سافرنا للحج أنا وهي .. ثم بنينا تلك العمارة بكل ما معنا .. الحمد لله .. لا أنكر أن الله رزقنا من فضله .. ولا يمكنني أن أنسى بالطبع ما حييت فضلكما

خرجنا من عنده بعد ساعة أو أكثر فأصر أن يصحبنا للخارج بنفسه .. ما زلنا في حالة ذهول مما سمعناه .. لم نشأ أن نخبره أنها كانت مجرد مزحة .. مقلب آخر لنضحك عليه .. سألنى محسن هامساً ونحن في طريقنا للخارج: هل ستخبره بالحقيقة ؟ .. لم أرد .. أي حقيقة .. لم أعد أجد تفسيراً لما حدث .. انصرفنا سريعا نجهد

أذهاننا ونحن نستعيد ونفكر في كل ما سمعناه، بينما محمود ما زال يقف أمام بنايته الضخمة ليودعنا مبتسماً وهو يداعب حبات مسبحته القديمة

الصياد والسمكة

حمل شبكته وخرج ليصطاد، كان يتمنى أن يرجع اليوم بصيد كبير، لم يدخل جوفه الطعام منذ ثلاثة أيام، تطلع للشباك بترقب يكاد يتوسل إليها، لن يتحمل الجوع أكثر من ذلك .. كثيراً ما تمر عليه أيام مماثلة يخرج ويرجع خالي الوفاض ولكنه يمني نفسه اليوم بصيد وفير يعوض به جفاء البحر طيلة الأيام الثلاث الماضية، وإلا سيضطر إلى بيع شباكه؛ كل ما يمتلكه من حطام الدنيا.

بدأت الشمس تظهر في الأفق وتعكس أشعتها المبكرة على سطح الماء، رمى الشباك لأول مرة فعادت إليه خاوية، عاود المحاولة بجهد أكبر وفي كل مرة تخرج له كما رماها كأنما تعانده .. زاد القلق بداخله مع مرور الساعات بلا جديد يحمله إليه البحر .. قرص الشمس الآن يتوسط السماء وحرارته تلهب جبينه، والبحر الواسع يصر أن يبخل عليه برزقه .. واصل العمل بجهد مضاعف حتى أوشك النهار أن ينقضي وما زال البحر يقف ضده بإصرار .. تطلع لصفحة المياه بإحباط، لا مفر إذن من بيع الشباك .. لم يشعر بمرور الوقت إلا عندما بدأ يرى الأشياء بصعوبة، أعياه التعب، حتى لو أصطاد الآن لن يتمكن من بيع سمكه بعد أن انفض سوق السمك، مع ذلك قرر أن يرمي الشباك للمرة الأخيرة بدافع اليأس، تركها في المياه لمدة أطول، جلس بجوارها يفكر، يرسم أحلاماً لعلها تنسيه جوعه، تمنى لو تخرج له في تلك اللحظة جنية البحر لتنقذه، سمع البحارة كثيرا يتناقلون أخبارها، تخرج في أي صورة لصاحبها، لم يرها أحد من قبل، على الأقل ممن يعرفه، لكنهم يزعمون أنها تلبي لصاحبها كل مطالبه، هكذا كانت الأسطورة تتناقل .. تمنى لو يبتسم له الحظ فتخرج له ليطلب منها طعاماً وشراباً، ولا بأس ببعض المال .. يريد أن يسكت أنين معدته، ويشعر ولو لمرة واحدة فقط بثقل جيبه بعد طول فراغ .. أفاق من تأملاته بعد أن بدأ الظلام يبسط أرديته القاتمة على المكان، أسرع بإخراج الشباك من البحر، لا يدري هل هو من تأثير الجوع أم من حرارة الشمس التي ألهبت رأسه طوال النهار، أخرج الشباك بحماس وهو يتوقع أن تخرج معها جنية البحر، يتصورها امرأة جميلة ذات شعر طويل أصفر ولها ذيل سمكة، عيونها زرقاء بلون البحر تسحر من يراها، هكذا كانت والدته تصفها عندما تحكى له عنها .. سحب الشباك بقوة وقد دب نشاط مفاجئ في جسده، ولكن الشباك عادت إليه خاوية، تماماً كمعدته .. جرفه شعور بخيبة الأمل لكنه سرعان ما أفاق من أحلامه، لم يعد يستطيع رؤية يديه بسبب الظلام، أسرع

بالعودة إلى الشاطئ .. سيبيع الشباك الآن ويشترى بثمنها طعاماً، وقد يسهر على المقهى الليلة مع الرجال لأول مرة من فترة طويلة

رسا بالقارب، بدأ يلملم شباكه عندما لاحظ شئ ما خطف أبصاره، شئ لامع تنعكس أضواء الشاطئ البعيدة عليه فتجذبه .. اقترب من القارب .. سمكة صغيرة لم يرى مثلها من قبل، يبدو أنها علقت في الشباك ولم يلحظها بسبب صغر حجمها، تطلع إليها بفضول، ألوانها زاهية لا مثيل لها، تتلوى على أرضية القارب المغمورة بقليل من الماء الراكد وهي تكاد تختنق .. أسرع إلى البحر فملأ دلو من المياه وألقاها فيه، قال لنفسه في سخرية: بدلاً من جنية البحر تخرج لى أحد أسماك الزينة .. لن أستطيع أن آكلها ولكن ربما أبيعها لأحد تجار سمك الزينة وأحصل على بعض المال.

حمل شباكه وتوجه إلى أحد التجار فباعها له بعد جدال طويل، لم يحصل على السعر الذي يرضيه ولكنه تحصل على ما يسد جوعه، تذكر السمكة الملونة، عاد إلى القارب، حملها معه وتوجه بها إلى بيته ، وفي طريقه اشترى طعاماً وسجائر.

وصل بيته شبه المتداعي، حاول أن يشعل الضوء ولكن المصباح كان قديم ومتهالك كحال كل شئ آخر في المنزل، لم يستجب المصباح لمحاولاته سوى بعد جهد بضوء خافت، جلس وهو ناقم، تطلع للسمكة، ولدهشته انعكست أشعة المصباح الضعيفة عليها ليغمر جسدها الضياء، لم يرى سمكة من قبل بهذا البهاء .. دنا منها، لاحظها وهي تتحرك بلا نظام في كل اتجاه، عاودته آلام الجوع فأخرج الطعام وبدأ يتناوله وهو يتسلى بمراقبة السمكة بألوانها الغريبة التي لم يشهد مثلها من قبل، أنهى الطعام بسرعة، كان ينوي أن يتوجه للمقهى الليلة ولكن شئ ما جذبه إلى السمكة، ظل طوال الليل بجوارها يتطلع إليها بإعجاب ونام دون أن يدري.

استيقظ في الصباح نشطاً، كانت السمكة ما تزال في مكانها، وبقايا الطعام تملأ المكان . قال لها: "صباح الخير .. لا بد أنك جائعة" .. تثائب ثم ارتدى ملابسه وتوجه للبحر، وهناك لحق بمركب على وشك الخروج كصياد أجير .. في عرض البحر، رمى الصيادين الشباك، انتظاراً للرزق بدأ يحكي لزملائه عن السمكة التي اصطادها بالأمس، اندهش البعض فلم ير أحد مثلها من قبل، اقترحوا أن يبيعها لأحد تجار سمك الزينة لعله يجنى من ورائها بعض المال .. أخرج الصيادين الشباك، لدهشتهم كانت ممتلئة على آخرها، لم يتوقع الصيادين أن يكون البحر كريماً لهذا الحد، رموا الشباك

أكثر من مرة وفي كل مرة خرج الصيد وفيراً .. على غير العادة كان المكسب كبيرا ونصيبه كذلك فلكل صياد على المركب نسبة من الربح، لأول مرة يتحصل على مبلغ مماثل من عمله كصياد أجير .. عندما توجه للشاطئ، اشترى طعاماً كثيراً، تذكر السمكة الصغيرة، جلب لها طعاما أيضاً، أسرع بالعودة إلى منزله، توجه للاطمئنان على سمكته، كانت حركتها بطيئة، رمى لها بالطعام ولكنها لم تأكل، ضايقه الأمر، دنا منها، جلس بجوارها وتطلع إليها، سألها فجأة و كأنها تفهمه: "لما لا تأكلين؟ هل الطعام لا يعجبك؟" .. أطلق تنهيدة قصيرة ثم استكمل: "عندما كنت صغيرا كانوا يقدمون لي أحياناً أيضاً طعاما لا أحبه .. ولكني سأحضر لك طعاما أفضل المرة القادمة" . لا يدري كم لبث من الوقت بجوارها .. وربما بسبب إرهاق العمل أو بسبب أشعة الشمس التي ألهبت رأسه طوال النهار .. أو بسبب وحدته التي زادت حدتها عليه مؤخراً، افترش الأرض أمامها وانطلق يحكي لها عن حياته، عن ماضيه وطفولته، عن أحلامه التي لا تتحقق، وعن العزلة التي فرضها الفقر عليه فتكاد تقضي عليه .. ضاقت عليه الوحدة التي عانى منها طويلا وبات يشتاق لمن يسمع منه، والآن يشعر أن سمكته تسمعه وتشاركه همومه .. بدأ يفسر كل حركة من جسمها على أنها إيماءة، ويرى كل التفاته على أنها استجابة لحديثه، ولأول مرة ينتابه الشعور أن أحداً يشاركه همومه، أو هكذا خيل له .. لم يكن له أصدقاء يوماً أو زوجة أو أولاد، ولم يعتاد أن يفتح قلبه لأحد من قبل .. الغريب أنه كان يسخر عندما يتفاجئ بجارته المسنة تحدث قطتها كل صباح بعد أن هاجر كل أبناؤها بحثاً عن رزق تعذر الحصول عليه في قريتهم المعدمة، لم يكن وقتها يفهم سبب سلوكها بل ويستهزأ به، وها هو يقلدها في تلك اللحظة .. انتابه شعور بالندم على سخريته السابقة منها، تكلم كثيراً وفي النهاية نام بجوار السمكة.

استيقظ في الصباح متأخراً، توجه إلى الشاطئ مسرعاً ولكن لم تعد هناك مراكب، لم يكن يستطيع الخروج بمركبه الفارغة من شباك الصيد، في النهاية قرر أن يمضي بقية اليوم في المدينة للتسكع ولشراء بعض الأغراض .. مر بأحد محلات أسماك الزينة أثناء تجواله، دلف إلى الداخل ووصف لصاحبها السمكة الصغيرة التي اصطادها، هز صاحب المحل رأسه في حيرة قائلاً أنه لم يرى من قبل سمكة بذلك الوصف، ربما تكون سمكة نادرة .. عرض عليه مبلغ من المال لشرائها، وعلى الرغم من أن المبلغ كان مغرياً بالنسبة إليه، لكنه رفض دون تفكير بل وسأله عن طعام مناسب للسمكة وابتاعه رغم سعره الغالي.. في طريقه للخارج وقعت عينه على حوض صغير

للسمك، جذبه الشكل على الفور .. حوض جميل مطلي بالذهب تنعكس عليه الأضواء فتزيده جمالاً، شعر أنه صنع خصيصاً من أجل سمكته، تخيل شكل سمكته فيه لبرهه قبل أن يصطدم بثمنه المرتفع، وقف أمامه قليلاً مبهوراً ثم عزم أن يشتريه لاحقاً عندما يتوفر له المبلغ الكافي.

عندما عاد لقريته وصلته الأخبار المؤسفة .. البحر الهائج انتابته نوبة غضب معتادة عصفت ببعض المراكب، على الشاطئ لمح بعض أهالي القرية يتطلعون للبحر في حالة ترقب وحزن .. هل كانت مصادفة أنه لم يخرج اليوم للصيد .. عندما عاد لبيته في المساء مرهقاً، توجه لرؤية السمكة، لاحظ أن حركتها بطيئة، رمي لها الطعام ولكنها لم تأكل منه أيضاً، خاطبها بحسرة: "عرض على صاحب محل اليوم مبلغ كبير حقاً مقابل أن يحصل عليك .. هل أبيعك؟ ولكن إذا فعلت حقا، من يسمعني بعد ذلك، ومن يشاركني وحدتي القاتلة .. لا .. لن أسامح نفسي إن فعلت، ولن أتخلى عنك مهما حدث .. بل سأشتري حوض السمك الذي يليق بك بمجرد أن يتوافر لدي المبلغ الكافي .. أعدك بذلك" .. ظل بجانبها طوال الليل يحكي لها عن يومه، في غمرة حديثه تذكر شيئاً فأسرى لها بحماس: "هل تعلمين أنني لم أدخن من يومين رغم أني ابتعت السجائر .. كنت أدخن فقط لأنفث همومي مع الدخان .. يبدو أني لم أعد بحاجة لذلك حقا بعد الآن .. لم أعد أعانى من الوحدة كما كنت"

يوماً بعد يوم كان حبه لها يزداد حتى أصبح جنوناً يخشى أن يبرأ منه، يخاف عليها بشدة، يبقيها بجواره حين ينام حتى تكون أول ما تقع عيناه عليه حين يستيقظ، يقضي نهاره يعمل بكد على المراكب وبقية ليله في المنزل بجوارها .. كان صيده وفيراً على غير العادة ومكسبه كذلك، اشترى شباكاً جديدة وعاد للصيد على مركبه مجدداً، يبتاع بما يكسبه احتياجاته البسيطة ويدخر الباقي ليبتاع حوض السمك الذهبي كما تعهد .. مرت أسابيع .. وفي أحد الليالي عندما عاد إلى البيت لاحظ أن سمكته راقدة في القاع وحركتها أبطأ من ذى قبل، انقبض قليه، تطلع إليها فزعاً دون أن يدري كيف يتصرف . اعتراه خوف شل حركته، وقف بجوارها عاجزاً عن التدخل، راقب حركتها وقد بدأت تخمد، وألوانها الزاهية تفقد بريقها تدريجياً، ولأول مرة من فترة طويلة، يشعر بالخوف يجتاحه . خاطبها في توسل: "أرجوك أبقي بجانبي .. لا ترحلي .. سأبتاع لك الحوض الذهبي" .. أسرع الى الصندوق الذي يدخر فيه أمواله، جذبه بعنف، كان ممتلئاً إلى منتصفه تقريباً بالمال، لم يكن يتوقع أنه أدخر كل هذا المبلغ،

قال لها: "انظري جمعت مالاً كثيراً من أجلك .. سأشتري ما تريدين .. ولكن أبقي بجانبي" .. ولكن سمكته واصلت رحلة خمودها، كاد أن يجن، شعر بضعفه، وجد نفسه مدفوعاً بعيداً عنها، ذهب للصلاة، وعندما انتهى تحول إليها، وللوهلة الأولى أدرك أنها رحلت، لم يكن ضوئها يملأ المكان، راقدة في القاع بلا حركة، سحبها من الماء، ثم أعادها إليه بيد ترتعش

ظل طوال اليوم، بلا طعام، دون راحة، لا يكاد يتحرك من مكانه، قرر أن يعود بها من حيث أتت، استقل قاربه وذهب لعرض البحر، إلى أبعد نقطة يمكن أن يصل إليه، برفق رماها في البحر فلم يشعر إلا بقليل من العزاء

عندما رجع إلى بيته كان متعباً بشدة، جلس على كرسيه بلا حركة، تذكر أنه لم يأكل من الأمس، نظر للمبلغ في الصندوق الخشبي، المبلغ المخصص للحوض الذهبي، أخرجه ببطء وأحصاه، مبلغ كبير حقاً أدخره لم يتوقع أن يتحصل عليه يوماً، فكر ماذا يفعل بكل هذا الكم من المال، كان ينوي أن يشتري الحوض الذهبي لسمكته، فكر قليلا، زاد عزمه على تغيير حياته القاتمة .. في الصباح توجه للشاطئ وقد صمم على فكرة ما طالما روادت خياله مسبقاً، باع مركبه القديم واشترى مركباً أكبر وشباكاً جديدة وطعاماً بوفرة، استأجر اثنان من الصيادين، قرر أن يذهب فجأة إلى عرض البحر، إلى أبعد نقطة ممكنة حيث لم يتجاوزها صياد، أقنع الرجال معه بالمخاطرة، ظل في البحر يوماً كاملاً، كان يصطاد بلا كلل، وعندما عاد كان المركب ممتلئاً على غير العادة، غامر وربح فالسمك أوفر في عرض البحر كما توقع تماماً، ظل هكذا أكثر من عام، كان بعض الصيادين يزعمون أنه مجنون ليخاطر بحياته في عرض البحر الممتد كصفحة بلا حدود، لم يعتاد أحد الصيد من هناك من قبل، يخافون من غدر المياه، والده خاطر وذهب إلى هناك من قبل ولكن البحر رمى به جثة هامدة، قالوا عنه أنه مجنون مثل والده ولكنهم في الواقع كانوا معجبين به، كان رزقه كبيراً على غير المألوف، وعندما يعود يلزم بيته، ينام ساعات قليلة ثم ينطلق في الصباح مرة أخرى.

استيقظ يوماً فقرر أن يغامر وينفذ أحد أفكاره المجنونة .. ذهب إلى المدينة واستأجر شاحنة كبيرة، قرر أن ينقل بها السمك إلى المدن البعيدة عن الشاطئ حيث لا يوجد السمك بوفرة، خسر في البداية ثم بدأ يتعلم كيف يحافظ على السمك طازجا لأطول فترة ممكنة ونجح تدريجيا في التعامل مع دائرة أكبر من التجار لتسويق بضاعته ..

بعد عدة سنوات كان قد ذاع صيته، تزوج وقرر أن يبدأ مشروعاً آخر، شارك اثنان من تجار القرية الأثرياء وقام بافتتاح مطعم للأسماك في المدينة .. استعان بعدد من النساء الأرامل في قريته ممن ابتلع البحر منهم في نوبات غضبه المعتادة رجالهم فسدت أمامهم كل منافذ الرزق .. من أفضل من زوجة صياد لطهي الأسماك على أي حال .. خسر في الشهور الأولى حتى فكر في التخلي عن فكرته ولكن سرعان ما تحولت خسارته إلى مكسب بعد أن بدأت جودة ما يقدمه تلفت الأنظار وتفرض نفسها في السوق .. بعد خمس سنوات كاملة افتتح الفرع الثاني له .. ثم الثالث بعد عامين فقط، واشترى شاحنة جديدة لنقل الأسماك بدلاً من شاحنته القديمة المتهالكة .. توقف عن الصيد وتفرغ لأعماله التي تتسع يوماً عن يوماً لتلتهم معظم وقته .. سنوات طويلة تواترت عليه وهو يعمل بلا توقف حتى أضحى اسمه معروفا، وكبرت ثروته .. أنشأ نقابة للصيادين لتعينهم على الحياة، مد يده لمساعدتهم قدر استطاعته، بيته الكبير بناه وسط القرية، قرية الصيادين الذين أحبهم وأحبوه، أنجب العديد من الأبناء وبدأ الشيب يغزو شعره، وهنت عظامه وغزا المرض جسده ببطء فبدأ يستسلم له .. ذات يوم جذبه الحنين للبحر الواسع، وقف على الشاطئ يتطلع للمياه، يسترجع حياته كلها، تذكر السمكة الصغيرة التي منحها البحر الغامض له عندما كان يحلم بجنية البحر كي تحقق كل أمانيه، لم ينسى أن المبلغ الذي أدخره ليشتري لها حوضا ذهبيا هو الذي بدأ به حياته، ها هو قد حقق كل أمنياته حتى لم يعد في جعبته المزيد من الأحلام يسعى وراءها .. لم يكن ليحقق كل ذلك لو لم تظهر فجأة في حياته .. لولاها لبقى صياد معدم كما كان .. ابتسم بلا وعى .. عندما حكى قصته لأحد أبنائه أخبره أنها ربما تكون جنية البحر .. أطرق برأسه .. هل كانت جنية دفعته لتحقيق أحلامه بنفسه؟ أم تراها أوهام ترسخت في خياله بفعل سطوة أساطير قديمة لم يعد يقبلها العقل؟ تطلع مرة أخرى للبحر الغامض الممتد أمامه بلا حدود حائراً دون أن يجد إجابة

هادي

عندما قابلت هادي لم يكن راضياً عن حياته .. فوالده ما زال يصرف عليه رغم تخرجه من سنوات طويلة .. بل أنه هو من تكفل بمصاريف زواجه .. ورغم أنه يعمل ليلاً ونهاراً إلا أن راتبه لا يكاد يكفي احتياجاته الشخصية .. ولهذا سافر هادي للخارج .. ولكنه أخفى عن عائلته أنه يعمل كحارس أمن

وهادي ينحدر من أسرة ثرية .. أبوه هو عمدة القرية التي ولد بها .. وهو المنصب الذي لم يخرج عن عائلته وتوارثته من فترة طويلة .. ومعظم أراض القرية الخصبة تعود ملكيتها لعائلته الكبيرة .. لهذا كان من العار بالنسبة إليهم أن يسافر أحد ابنائهم للخارج للعمل كحارس أمن

ولم يكن هادي يبحث عن المال عندما فكر في السفر بقدر ما كان يرغب في فرصة للاستقلال عن عائلته، وأن يثبت للجميع قدرته على النجاح بعيداً عنهم .. فهادي منذ تخرجه من كلية التجارة من فترة طويلة حيث نشأت قصة حب بينه وبين زميلة له في الكلية لسنوات، حاول أن يبحث عن عمل كمحاسب ولكنه لم يوفق .. حتى عندما وجد عملاً في شركة كبرى في المدينة لم يكن راتبه يكفي احتياجاته الشخصية .. لما لا وهو شديد الاهتمام والعناية بمظهره بحكم انتمائه لعائلة ثرية .. ولولا مصروفه الذي ظل يتلقاه من والده ما تمكن من الإنفاق على نفسه .. ومرت ثلاثة أعوام كاملة بعد التخرج .. وفتاته ما زالت تنتظره .. وهادي ما زال يحاول أن يثبت نفسه دون جدوى .. وبدأ صبرها ينفذ .. وطموحه يقل .. ولم يحقق شيئاً مما كان يحلم به .. اضطر في النهاية أن يرجع إلى قريته محبطاً ليعمل في حسابات والده .. الأمر الذي أسعد الأب وكان يتمناه من فترة .. وطلب هادي بحرج من والده أن يساعده في مصاريف زواجه .. ولم يمانع الأب .. وتم الزواج سريعاً .. وأنجب بنتاً جميلة .. ومرت أربع أعوام أخرى .. وبدأ هادي يتبرم من القرية والعمل .. كره أن يعيش دوماً في ظل أبيه .. ليست تلك وظيفة المستقبل التي طالما راودت خياله وكان يطمح إليها .. وبدأ يضيق بحياته .. ومما زاد قسوة هذا الشعور بداخله أنه ما زال يحصل على مصروف من والده بعد أن زادت نفقات معيشته بقدوم ابنته .. ورغم ذلك لم يحاول أن يتوقف عن ارتداء أغلى الملابس والظهور بأفضل صورة .. فقد اعتاد أن يكون مثال لشباب

القرية في الأناقة ومحط إعجاب الناس دوما في قريته .. وربما كان ذلك هو النجاح الوحيد الذي حققه في حياته ولهذا ظل يحافظ عليه

وقرر هادي أن يبحث عن فرصة سفر .. لا يدري كيف راودته الفكرة .. ربما لأنه رأي كثير من شباب القرية المعدم يسافر ثم يعود بعد سنوات قليلة وقد طرق الثراء أبوابهم .. فيقتنون أراض ويقيمون مشاريع .. وربما لأنه أراد أن يثبت للجميع أن باستطاعته النجاح بعيداً عن أهله .. وبحث هادي كثيراً وطال بحثه .. وشعر باليأس أن يجد عملاً يناسبه خاصة أنه لا يمتلك رصيد كاف من الخبرة يتيح له إيجاد أي عقد عمل مناسب .. وفي زيارة له لصديق عاد للتو من الخارج، حكى له صديقه كيف سافر في البداية كعامل بسيط في شركة صغيرة، وتحمل لسنوات قليلة قبل أن ينجح في العثور على فرصة العمل التي يحلم بها .. وأعجب هادي بفكرة صديقه، واستولت على تفكيره .. فكر أن يسافر في البداية على أي عمل مهما كان بسيطاً .. ثم يبدأ في البحث بعدها عن فرص عمل أفضل هناك بعد أن يستقر ويلم بأحوال البلد .. قرأ بعدها بأيام عن وظيفة لحراس أمن في أحد الدول الخليجية .. تقدم لها بتردد دون أن يخبر أحداً .. وتمت الموافقة عليه سريعاً .. أعد نفسه للسفر وسط طموحه بأن تكون تلك الفرصة أول خطوة على الطريق الصحيح .. وسافر وسط وداع حار من أهله بعد أن أوهم الجميع أنه تحصل على عقد عمل كمحاسب في أحدى الشركات الصغرى هناك

وفي الغربة تبخرت أحلامه سريعاً .. وجد نفسه تحت رحمة كفيل لا يرحم .. وساعات العمل الطويلة التي تصل إلى اثني عشر ساعة يومياً أرهقته ولم تتح له الفرصة للبحث عن عمل آخر .. زاد من همومه متاعب السكن حيث يقيم هو وسبعة من زملائه في غرفة واحدة ضيقة في منطقة شبه نائية .. فضلاً عن الوقوف على قدميه لساعات طويلة يقاسي الحر وأشعة الشمس .. وتحمل هادي ظروفاً لم يعتادها من قبل .. ورغم حياته المترفة من قبل لم يستسلم للظروف الصعبة التي يواجهها وصمم أن لا يفشل سريعاً .. لن ترحمه ألسنة الناس عندما يعود خائباً .. ولن يغفر لنفسه أن يظل فاشلاً يعيش على إحسان أبيه .. وتنقل هادي بين عدة مواقع لا يكاد يستقر في أي منها .. مرت شهور وبدأ جسمه يهزل .. وصبره يقل .. وبدأ يفكر جدياً في العودة .. قبل أن يستقر به المطاف للعمل كحارس في فندق كبير .. وهناك رأي عالماً لم يكن يحلم برؤيته .. وسحره عالم الفندق الفخم .. وابتسمت له الدنيا قليلاً بعد

أن وجد أن ظروف العمل في الفندق أفضل من غيرها من الأماكن الأخرى التي عمل بها .. تحسنت حالته وبدأ يستعيد عافيته تدريجياً .. كسب ثقة الجميع بعد أن لاحظوا إخلاصه وتفانيه في العمل .. ترقى سريعاً وحصل على امتيازات عدة .. وأتيحت له الفرصة لتكوين علاقات مع كثير من العاملين داخل الفندق، وأحدهم محاسباً مصرياً توطدت أواصر الصداقة بينهما بسرعة .. وعندما حكى له هادي عن ظروفه وعده أن يساعده .. نصحه فقط بالصبر قليلاً حتى تنتهي مدة كفالته .. وأكد له أن فرص العمل متوافرة .. وبرواتب كبيرة لا يحلم بها

وشجع هذا الكلام هادي وأحيا فيه الأمل .. وبدأ يحلم مرة أخرى بالنجاح .. ورسم أحلاماً عريضة .. كان قد مر عليه سنة وبضعة أشهر .. عليه الانتظار سنة أخرى حتى يحقق أحلامه .. ولن يكون ذلك صعباً عليه بعد أن اعتاد الغربة .. كما أنه بدأ يحقق بعض النجاح ولا يريد التخلي عنه .. نال ثقة مديريه حتى أنه انتقل للعمل داخل الفندق بدلاً من الوقوف على الباب الخارجي حيث المعاناة من حرارة الشمس والرطوبة الخانقة .. وبدأ راتبه الهزيل يزداد تدريجياً .. وتخلص من مصاريفه الشخصية .. حيث لا يحتاج للتباهي بمظهره هنا فهو لا يرتدي في العمل سوى الزي المفروض عليه، ويوفر له الفندق وجبات الطعام أثناء مناوباته .. وبدأ يرسل معظم راتبه لزوجته .. ولأول مرة لم يعد يطلب من أبيه مصروفاً لينفق على أسرته الصغيرة .. صحيح أنه كان يشتاق لرؤية ابنته الحبيبة وزوجته .. ولكنه صمم أن لا يعود حتى يتسنى بناء مستقبل أفضل لهما .. كما أنه يحدثهما بشكل مستمر .. ويمكنه الحصول على أجازة بعد بضعة أشهر للعودة للوطن ورؤية أسرته ..

واستمر هادي في محادثة أسرته كل فترة للاطمئنان عليهم .. وكان يحادث بعض أصدقائه المقربين أحياناً على مواقع التواصل الاجتماعي التي كان شغوفاً بها .. كان يوهم الجميع أنه يعمل كمحاسب في شركة محترمة رغم ضعف الراتب من أجل اكتساب بعض الخبرة تفيده لاحقاً .. وأنه انتقل للعمل الآن في فندق كبير بنفس الوظيفة .. ولم يشك أحد في كلامه .

وبدأ هادي يعشق عمله حقا داخل الفندق؛ لما لا وهو من الفنادق المعروفة التي يقصدها كبار الشخصيات .. وهادي نفسه قابل الكثير منهم أثناء عمله .. مطربين مشهورين وممثلين ورجال سياسة معروفين .. ولكن لم يحاول هادي الاحتكاك بأحد منهم طبقاً لسياسة الفندق .. وانتشرت الأخبار يوماً ما عن إقامة بطولة عالمية لكرة

القدم داخل الدولة التي يعمل بها .. وأن أكثر فرق العالم شهرة ستأتي للمشاركة في تلك البطولة .. ولأن هادي يحب كرة القدم بجنون .. تمنى فقط لو تمكن من حضور أحد تلك المباريات ورؤية نجومه المفضلين

وتوجه هادي يوماً للعمل ليتفاجئ باستعدادات ضخمة تجرى في الفندق على غير المألوف .. وعندما سأل عن السبب أبلغوه أن الفندق تم اختياره ليستضيف بعض فرق البطولة .. نظراً لشهرته من ناحية، ولقربه من ملاعب التدريب من ناحية أخرى .. ولعدة أيام ظلت الاستعدادات في الفندق تجرى على قدم وساق .. والكل في حالة تأهب لاستقبال الحدث الهام

كانت مفاجاة سارة لهادي عندما علم أن فريقه المفضل – برشلونة – من الفرق التي يستضيفها الفندق .. كاد أن يطير من الفرحة .. لم يكن يتمنى من أيام قليلة سوى حضور أحد مباريات الفريق العالمي لرؤية لاعبيه المفضلين من الملعب .. ولكن الآن يمكنه رؤيتهم يومياً عن قرب .. بل وربما تتاح له الفرصة للالتقاء بهم والتحدث معهم وجهاً لوجه .. ولم يعد ينام .. بات يحصي اللحظات لقدوم الفريق .. خاصة بعد أن علم أن ذلك الساحر الصغير لاعبه المفضل، ونجمه الأثير الذي يتابعه دائماً، سوف يكون متواجداً مع الفريق

وصل الفريق قبل الدورة بأيام قليلة .. وبدأ الفندق اتخاذ إجراءات حازمة غير معتادة .. فالفندق أضحى مقصد العديد من الصحفيين والمعجبين ممن حاولوا بكل الطرق اختراق الحصار ومقابلة اللاعبين .. وتم تغيير مكان هادي ليتولى الحراسة من خارج الفندق، مما أغضبه بشدة .. فلم يعد يستطيع مقابلة أي لاعب .. خاصة وأن كل تحركاتهم تتم بحساب .. وتحت رقابة شديدة لم ينجح في اختراقها

ومضى يومان .. ثم قارب أسبوع على الانتهاء .. وهادي يتحين الفرصة المناسبة دون جدوى .. فهو لا يرى الفريق إلا عند مغادرته أو عودته للفندق .. و تابع مباريات البطولة من خلال التلفاز .. ورأي تألق لاعبه المفضل في أولى مباريات البطولة .. وزاده ذلك تلهفاً على مقابلته .. ولكن كل محاولاته باءت بالفشل .. وكاد اليأس يتسرب إليه مع توالي المباريات واقتراب البطولة من نهايتها .. ولكن كان للمصادفة دور آخر

استدعاه مديره إلى مكتبه يوماً فهرع إليه .. كان هادي في طريقه للمصعد عندما رآه .. نجمه المفضل .. يتبادل الحديث مع بعض نزلاء الفندق و يلتقط عدد من الصور معهم .. لم يصدق هادي عيناه .. وجد نفسه يندفع إليه بلا تردد .. لم يعد يهمه قوانين الفندق .. نسى أو تناسى كل واجباته .. أسرع إليه غير مبال بشئ .. طفق يصافحه عليه بحرارة بينما ابتسم اللاعب بارتباك وهو يرى اندفاع ذاك المعجب المتحمس نحوه .. كانت كل ملامح الفرحة والحماس ترتسم على وجهه .. وبسرعة وقبل أن يراه أحد من رؤسائه .. أخرج هاتفه النقال وطلب من النجم التقاط صورة معه .. لم يكن هادي يتقن لغته فاستخدم يديه للإشارة .. وفهم اللاعب .. وقف هادي بجانبه يبتسم بعدما طلب من أحد العابرين التقاط صورة لهما .. وعندما لمع فلاش الكاميرا .. كان هادي يبتسم بفخر وهو في قمة سعادته .. صافح النجم بعدها بفرح وانصرف بسرعة

لم يتمالك هادي نفسه .. لم ينتظر العودة لمنزله .. تملكه الحماس بشدة ودون تفكير استخدم هاتفه ليضع الصورة لتتصدر حسابه الشخصي على الفيسبوك حتى يراها كل أصدقائه .. لن يصدقوا أن ابن قريتهم يقابل نجوم العالم ويلتقط الصور معهم .. ولأول مرة يشعر في حياته بالفخر .. وانتظر بشغف رد فعل أصدقائه على الصورة

وأحدثت الصورة أثرها بالفعل .. وبسرعة تناقلها شباب القرية .. كانت العيون تطالعها بذهول .. ولم يعد هناك حديث في القرية سوى عن صورة هادي ابن قريتهم الأنيق مع اللاعب المعروف .. كان هادي يقف فعلاً بجانب أسطورة كرة القدم واضعاً يده على كتفه .. ولم يكن هناك شك أنه هو النجم العالمي .. ولكن لم يكن ذلك هو الشئ الوحيد في الصورة الذي لفت الانتباه .. كان ما جذب انتباههم حقاً وبشدة هو صورة هادي نفسه .. ابن العمدة .. يرتدى زي أزرق مميز مكتوب عليه بخط واضح - حارس أمن - باللغتين العربية والإنجليزية .. تحته شعار شركة الأمن واسمها .. بينما يتطلع ابن قريتهم الأنيق للكاميرا وعلى شفتيه ترتسم ابتسامة ثقة رائعة

الفهرس

ورقة ١

معلش ٣

الساقية المهجورة ٦

العصبي ١٠

البطل ١٩

الكلب ٢٣

الخبر ٢٨

الشبح ٣٢

الضريبة ٣٦

العدو ٤١

القيمة ٤٦

أزمة ٥١

المغناطيس ٥٦

الحاجز ٦٧

المقلب ٧٣

الصياد والسمكة ٨٠

هادي ٨٦